
د. مجدى الهلالى
ركائز
الدعوة

د . مجدي الهلالي

الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة

دار التوزيع والنشر الإسلامية

Scanned by CamScanner

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وبعد :

فكلما انشق فجر يوم جديد ازدادت قناعتنا بأن أهم ما ينقص جيلنا ـ جيل الصحوة الإسلامية ـ هو الانتقال بمعاني الإسلام من حيز الإطار النظري إلى واقع حياتنا العملية. فبدون إقامة الإسلام في نفوسنا لن يقوم على أرضنا.

ولقد أحسن الإمام الشهيد حسن البنا صنعا عندما جمع الكثير من معاني الإسلام في أركان البيعة العشرة والتي بدرجة اكتمالها في نفس الأخ تكون قوته وتكون كذلك درجة الاعتماد عليه كلبنة صالحة في صرح البناء الإسلامي.

فحري بنا ونحن في هذه المرحلة الدقيقة من تاريخ أمتنا أن نعمل على استكمال هذه الأركان داخلنا لعلنا نكون ممن يستعملهم الله عز وجل في التمكين لدينه ولا يستبدلهم بقوم آخرين.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء الصراط.

القاهرة مايو ١٩٩٤م

ذي القعدة ١٤١٤هـ

Scanned by CamScanner

مقدمة الطبعة الأولى

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فهو المهتد، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً.

واشهد ان لا إله إلا الله وحده لا شريك له، واشهد ان محمداً عبده ورسوله.

وبعد :

فإن الناظر المتفحص لأحوال الأمة الإسلامية التي أرادها الله لكي تكون خير أمة أخرجت للناس يرى الفساد قد انتشر في كل ناحية من نواحي الحياة، والانحلال لقد استشرى في كل بقعة من بقاعها، نُحّي القرآن عن منصة الحكم وغيبت شريعة الله عن أنظمة الحياة، وجُزِّئت دولة الخلافة إلى دويلات كثيرة متمزقة يحارب بعضها بعضا.

استاسد فيها نفوذ أعداء الله من صلبيين وشيوعيين ويهود، سلّموا أزمة الحكم فيها لأناس من بني جلدتنا ويتكلمون بالسنتنا وصفهم الرسول ﷺ بانهم دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها، شرعوا للناس بما تمليه عليهم شياطينهم وتسول لهم اهواؤهم، عطّلوا احكام الإسلام، سيطروا بالقوانين الوضعية والتقاليد الغربية والقيم الأجنبية على حياة المسلمين وبخاصة الطبقة المثقفة منهم، فتخرجت أجيال تحمل أسماء إسلامية، وعقولاً أجنبية.

انتشر الفساد، وخربت الأخلاق، وغرقت الشعوب في حب الشهوات، فاصبح العرى هو الأساس والتدين هو التطرف والتخلف.

حاربوا العقيدة بادعياء حرية الفكر، وحاربوا فنون القوة بفنون اللذة.

انطبق حالنا مع ما قاله الحبيب المصطفى ﷺ : «يوشك أن تداعى عليكم الأمم

Scanned by CamScanner

كما تداعى الأكلة إلى قصعتها»(١) أصبحنا اضيع من الايتام على مائدة اللئام.

اجتمعت على امتنا كل أم الأرض من صليبيين حاقدين، وشيوعيين ملحدين، ويهود طامعين ووثنيين شامتين، حتى عبّاد البقر... كل هؤلاء اجتمعوا علينا ليبيدونا يقولون لنا: جاء وقت تصفية الحساب ويرفعون شعار: «دمّروا الإسلام ابيدوا أهله».

إن هذا الواقع المرير الذي يحياه المسلمون الآن يفرض على كل مسلم فرض عين ان يعمل علي إقامة حكم الله في الأرض، ويغير هذا الواقع، ويحرر بلاد الإسلام من الانحلال والكفر والإلحاد، وأي تقصير في أداء هذا الواجب سيعرضنا للمساءلة أمام الله عز وجل يوم لا ينفع فيه الندم.

ومن العجائب أنا نرى جلد أصحاب الباطل، وتفانيهم لتنفيذ خططهم، وفي الوقت نفسه نرى المسلم غافلا إلا الذين رحمهم الله.

وصدق فيهم قول الشاعر:

تبلد في الناس حس الكفاح ... ومالوا لكسبٍ وعيش رتيب

يكاد يزعزع من همتي ... سدور الأمين وعزم المريب

لا بد من عمل دءوب متواصل، يوقظ الناس من سباتهم ويحرك فيهم معاني الجهاد والبذل وهذا لن يتحقق إلا إذا شعر كل منا بقيمة الحق الذي يحمله وشدة افتقار الناس إليه.

يقول أحد الصالحين: وددت لو أني أبلغت هذا الحق لكل طفل في بطن أمه. إن الانطلاق في ميدان الدعوة إلى الله هو بداية الطريق لبعث أمة واراها ركام التصورات وركام الأوضاع وركام الأنظمة التي لاصلة لها بالمنهج الإسلامي الصحيح.

---

(١) الحديث عن ثوبان واخرجه الترمذي وأبو داود وقال: سنده صحيح.

Scanned by CamScanner

والدعوة في هذا الوقت وفي هذه المرحلة الدقيقة في أمس الحاجة إلى رجال من نوع خاص يحملونها ويسيرون بها.

فهي لا تحتاج الآن إلى الكسالى الذين يتغنون بالإسلام ولا يخطون خطوة وراء ذلك.

إنها بحاجة إلى من يحملها لا إلى من تحملهم.

فطريق النصر هو طريق الآلام، أرضه أشواك وسماؤه عواصف وأخطار ومعالمه شهداء، رجاله ﴿صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الإحزاب: ٢٣] قاعدته الصوام القوام، الخاشعون المخبتون، رهبان بالليل فرسان بالنهار(١).

وحتى يسهل علينا حمل الدعوة والسير بها سيراً صحيحاً، لا بد من غرس قواعدها وإقامة ركائزها في نفوسنا.

وهذا يحتاج إلى جهد ضخم وعمل دائب من الدعاة والمربين إن أرادوا أن يُعدّوا جنوداً للإسلام، ورجالاً للدعوة، وحملة لمشاعل النور والهداية في العالمين.

لا بد من قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار وتقف في وجه المؤامرات وتجاهد في كل المجالات والجبهات، وتدفع ثمن إعلاء كلمة الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء الابرار وتصبر على الظمأ والتعب والجوع وتغيظ الكفار بهذا العطاء الدائم ولا تتخلف عن نداء الجهاد(٢) وحينئذ يأتى النصر ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾ [يوسف: ١١٠] فلنبشر بالفرح القريب فقد أخبر الحبيب المصطفى ﷺ: **«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلاّ أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر»**(٣).

وفي هذا الكتاب [illegible] من ركائز الدعوة - حاولت إلقاء الضوء على بعض ر[illegible]

الدعوة [illegible] الله أن يجعلنا أهلاً لحملها.

[illegible] عن الإخلاص وأهميته وعن الطاعة وضرورتها ومقتضياتها وعن

الأخوة وفضلها وطرق تحقيقها وتكلمت عن الثقة والتجرد والتضحية والثبات

والجهاد والعمل.

والله - أسأل - أن يجعل ما كتبت خالصاً لوجهه الكريم والله من وراء القصد

وهو الهادي إلى سواء الصراط.

* * *

Scanned by CamScanner

الفصـــل الأول

الإخـلاص

دخل عمر رضى الله عنه المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن اليسير من الرياء شرك وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء الذين إن غابوا لم يفتقدوا وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى ينجون من كل غبراء مظلمة.

أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد

Scanned by CamScanner

الفصل الأول

الإخلاص

تمهيد

لقد أثبتت الأيام أننا وإن كنا بحاجة إلى فهم عميق للدين، فحاجتنا إلى إخلاص العمل لله أشد، فالأحداث الكثيرة والمتتالية التى حدثت في الفترة الأخيرة داخل صفوف المسلمين أكدت لنا أن غياب الإخلاص التام لله عز وجل يمكن أن يؤدي إلى التنافس والتصارع بل والتقاتل بين أبناء الأمة الواحدة من أجل الذات.

ولقد كان سلف هذه الأمة يولى قضية الإخلاص اهتماماً كبيراً، وكان يحرص على التذكير الدائم به في كل مناسبة وكان واقعه يعكس هذا الحرص، فلا عجب إن وجدنا حديث «إنما الاعمال بالنيات» يتصدر الكثير من كتابات سلفنا الصالح، ولا عجب كذلك إن قرأنا عن أحدهم أنه صنف كتابا ولم ينسبه لنفسه مخافة الوقوع في الرياء، أو آخر كان يجتهد في إخفاء عمله فلا يعرف الناس أنه يطعم مساكين المدينة إلا بعد موته... وآخر، آخر...

فإن أردنا أن نصل إلى ما وصلوا إليه - وهم خير قرون هذه الأمة - فلنهتم بالإخلاص لله أكثر وأكثر، ولنتعهد شجرته في قلوبنا لنسعد في الدنيا والآخرة.

* * *

Scanned by CamScanner

ضرورة الإخلاص

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥].

وقال: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ② أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وقال لنبيه ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُ دِينِي ⑭ فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِ﴾ [الزمر: ١٤، ١٥].

وقال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ⑯② لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وعن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه: «أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ﷺ أرأيت رجلاً غزا يلتمس الأجر والذكر؟ فقال رسول الله ﷺ «لا شيء له، فأعادها عليه ثلاث مرات يقول له رسول الله ﷺ: لا شيء له قال: إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه»[1].

وفي الصحيح عنه ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسامكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[2].

وقال تعالى: ﴿لَن يَنَالَ اللَّهَ لُحُومُهَا وَلا دِمَاؤُهَا وَلَكِن يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنكُمْ﴾.

[الحج: ٣٧]

ومن عبارات السلف، قول الفضيل بن عياض: ترك العمل من أجل الناس رياء،

---

(١) أخرجه النسائي بإسناد جيد.

(٢) رواه مسلم.

Scanned by CamScanner

والعمل من أجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما.

وقال الجنيد: الإخلاص سر بين الله وبين العبد لا يعلمه ملك فيكتبه ولا شيطان فيفسده، ولا هوى فيميله(١).

وقد سئل سهل بن عبد الله: أى شيء أشد على النفس؟ فقال الإخلاص؛ إذ ليس لها فيه نصيب(٢).

ويروى عن بعضهم أنه قال: غزوت في البحر فعرض بعضنا مخلاة، فقلت أشتريها فانتفع بها في غزوى فإذا دخلت مدينة كذا بعتها فربحت فيها، فاشتريتها فرأيت تلك الليلة في النوم كان شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه: اكتب الغزاة فاملى عليه خرج فلان متنزها وفلان مرائياً وفلان تاجراً وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى فقال: اكتب خرج تاجراً، فقلت: الله الله في أمرى؛ ما خرجت أتجر وما معى تجارة أتجر فيها، وما خرجت إلاَّ للغزو، فقال: يا شيخ قد اشتريت أمس محلاة تريد أن تربح فيها فبكيت وقلت: لا تكتبونى تاجراً فنظر إلى صاحبه وقال: ما ترى؟ فقال اكتب خرج فلان غازياً إلاَّ أنه اشترى في طريقه مخلاة ليربح فيها حتى يحكم الله عز وجل فيما يرى(٣).

* * *

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: ٢٢٢.

(٢) إحياد علوم الدين: ٤/ ٣٨١.

(٣) إحياء علوم الدين: ٤/ ٣٢٧٨.

Scanned by CamScanner

معنى الإخلاص

يقول الإمام ابو حامد الغزالي:

«اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره، فإذا صفا شوبه وخلص عنه سمي خالصا ويسمى الفعل المصفى المخلص: إخلاصاً. فقال تعالى: ﴿مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾ [النحل: ٦٦]. فإنما خلوص اللبن ألا يكون فيه شوب من الدم والفرث ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والإخلاص يضاده الإشراك، فمن ليس مخلصاً فهو مشرك، إلأ أن الشرك درجات، فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الألوهية والشرك منه خفي ومنه جلي وكذا الإخلاص، والإخلاص وضده يتواردان على القلب، فمحله القلب وإنما يكون هذا في القصود والنيات فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو مخلص، ومن كان غرضه التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الإخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب(١).

ويقول الإمام الشهيد حسن البنا:

«الإخلاص هو أن يقصد الأخ المسلم بقوله وعمله وجهاده كله وجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مثوبته من غير نظر إلى مغنم أو مظهر أو جاه أو لقب أو تقدم أو تأخر وبذلك يكون جندى عقيدة وفكره لا جندى غرض ومنفعة»(٢).

وهو قوة إيمانية يدفع صاحبه بعد جذب وشد إلى أن يتجرد من المصالح الشخصية ويترفع عن الغايات الذاتية وأن يقصد من عمله وجه الله لا يبغى من ورائه جزاء ولا شكوراً(٣).

---

(١) الاحياء: ٤/ ٣٧٩.

(٢) الرسائل: ٢٧١.

(٣) صفات الداعية النفسية: ١٢

قال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

فمن الناس من يطعم المسكين ولكن كم من هؤلاء لا يريد ثمنا دنيويا لهذا الإطعام؟!.

فالثمن المرجو في مخيلة غالبية هؤلاء قد يكون توقيرهم وتقديمهم في المحافل، وشكرهم الدائم على ذلك الإطعام والقيام على خدمتهم إذا احتاجوا للخدمة...

فإذا ما حدث تقصير من قبل هؤلآء المساكين في أى أمر من هذه الأمور وغيرها ذكّرهم هؤلاء باطعامهم لهم، وحدثوا نفوسهم بتلك العطايا وكيف يكون مقابلها هذا التقصير بل قد يصل البعض منهم إلى أبعد من ذلك فيخبر أصدقاءه ومعارفه ولا يبالى بهتك ستر هؤلاء المساكين.

فهؤلاء بعيدون عن الإخلاص لله بهذا الإطعام.

فالمخلص يطعم المسكين ويطعم المحتاج ابتغاء وجه الله، والدليل العملى على أنه أعطى لله نسيانه هذا الإطعام وتلك العطايا فور خروجها من يده، فيتعامل مع من أعطاه بلا منٍّ ولا طلب شكر أو محمدة أو توقير أو احترام بل إذا قصر أحدهم في حقه فلا لوم ولا تذكير بشيء مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ﴾.

وبالجملة فتفسير معنى الإخلاص كما يقول سهل بن عبد الله التسترى: «أن تكون حركات (العبد) وسكونه في سره وعلانيته لله تعالى وحده لا يمازجه شيء لا نفس ولا هوى ولا دنيا»[1].

* * *

(١) مقدمة المجموع للنوري: ٧، ٨.

حقيقة العمل الخالص:

قال تعالى: ﴿ الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملاً ﴾ [الملك: ٢].

قال الفضيل بن عياض: هو أخلصه وأصوبه قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه؟ فقال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾ [الكهف: ١١٠].

• • •

خطر الرياء

قال تعالى: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقال عز وجل في صفات المنافقين: ﴿ يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا ﴾ [النساء: ١٤٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»[١].

وعن جُندُب بن عبد الله بن سفيان رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «من سمّع سمّع الله به، ومن يرائي يرائي الله به»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله عز وجل لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضاً من الدنيا، لم يجد عرف الجنة يوم القيامة»[٣] يعني ريحها.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى فيه يوم القيامة ثلاثة: رجل استشهد فأتي به فعرّفه نعمته فعرفها قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت قال: كذبت، ولكن قاتلت لأن يقال جريء فقد قيل ثم أمر به فسحب على وجهه ثم ألقي في النار، ورجل

---

(١) رواه مسلم.

(٢) متفق عليه.

(٣) رواه أبو داود بإسناد صحيح.

Scanned by CamScanner

تعلم العلم وعلمه وقرأ القرآن فاتى به فعرفه نعمه فعرفها قال: فما عملت فيها قال: تعلمت فيك العلم وقرأت فيك القرآن .. قال كذبت، ولكنك تعلمت ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارىء فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل وسع الله عليه وأعطاه من أصناف المال، فاتى به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيه إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال: هو جواد! فقد قيل، ثم امر به فسحب على وجهه ثم ألقى في النار(١).

وعن شداد بن اوس: «رأيت النبى ﷺ يبكي فقلت ما يبكيك يا رسول الله؟ قال: إني تخوفت على أمتي الشرك أما إنهم لا يعبدون صنماً ولا شمساً ولا قمراً ولا حجراً ولكنهم يراءون باعمالهم»(٢).

فاى عقل لهؤلاء المرائين وهم يرهقون انفسهم في أعمال لا نفع لهم فيها؟!.

كيف نسمح لانفسنا ان نُقدم على اعمال قد تكلفنا سير وجهد وعرق ومال، كل ذلك في مقابل نيل استحسان الناس وطلب الرفعة عندهم ... ما قيمة ذلك؟.

اين عقولنا ونحن نرى أموالنا وأوقاتنا تضيع هباءً؟ اما آن لنا أن نوقف هذا السفه؟!

إلى متى نبطل صدقاتنا ونحبط اعمالنا ونضيع أوقاتنا بلا مقابل كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾ [البقرة: ٢٦٤].

* * *

(١) رواه مسلم.

(٢) أخرجه ابن ماجة والحاكم.

Scanned by CamScanner

أثر الإخلاص لله

يقول تعالى: ﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس: ٢٢].

ويقول تعالى: ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴾.

[لقمان: ٣٢]

ففي وقت الكرب والضيق عندما تنفد الاسباب وتضيق الصدور وتكثر الظنون ويحاط بالإنسان من كل جانب عند هذه اللحظات يتجه الإنسان بكليته إلى الله مخلصاً له الدين ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

وعن ابى عبد الرحمن بن عمر بن الخطاب رضى الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « انطلق ثلاثة نفر ممن كان قبلكم حتى آواهم المبيت إلى غار فدخلوه فانحدرت صخرة من الجبل فسدت عليهم الغار فقالوا: إنه لا ينجيكم من هذه الصخرة إلاَّ ان تدعوا الله تعالى بصالح اعمالكم. قال رجل منهم: اللهم كان لي ابوان شيخان كبيران وكنت لا اغبق[1] قبلهما اهلاً ولا مالاً فنأى بى طلب الشجر يوماً فلم أرح عليهما حتى ناما فحلبت لهما غبوقهما فوجدتهما نائمين فكرهت أن

---

(١) الغبوق: ما يُشرب بالعشي، وايضاً: ما يُحلب العشي.

Scanned by CamScanner

فلبثت والقدح على يدى أنظر استيقاظهما وأن أغبق قبلهما أهلاً ومالاً أوقظهما والصبية يتضاغون[1] عند قدمى فاستيقظا فشربا غبوقهما اللهم إن حتى برق الفجر كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك ففرج عنا ما نحن فيه من هذه الصخرة فانفرجت شيئاً لا يستطيعون الخروج منه .

قال الآخر: اللهم إنه كانت لي ابنة عم كانت أحب الناس إلي، وفي رواية، كنت أحبها كأشد ما يحب الرجل النساء، فأردتها على نفسها فامتنعت مني حتى ألمت بها سنة من السنين فجاءتني فأعطيتها عشرين ومائة دينار على أن تخلي بيني وبين نفسها ففعلت، حتى إذا قدرت عليها - وفي ورواية - فلما قعدت بين رجليها قالت اتق الله ولا تفض الخاتم إلاّ بحقه، فانصرفت عنها وهي أحب الناس إليّ وتركت لها الذهب الذي أعطيتها اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة غير أنهم لا يستطيعون الخروج منها.

وقال الثالث: اللهم استأجرت أجراء وأعطيتهم أجرهم غير رجل واحد ترك الذي له وذهب، فثمرت أجره حتى كثرت منه الأموال فجاءني بعد حين فقال يا عبد الله أدّ إلي أجري، فقلت: كل ما ترى من أجرك من الإبل والغنم والرقيق. فقال: يا عبد الله لا تستهزىء بي، فقلت: لا أستهزىء بك، فأخذه كله فاستاقه فلم يترك منه شيئاً، اللهم إن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون »[2].

وقال ابن قتيبة في كتابه عيون الاخبار[3] حاصر مسلمة بن عبد الملك حصناً وكان في ذلك الحصن نَقْب - أي ثقب في الحائط - فندب الناس إلى دخوله، فما دخله أحد ! فجاء رجل من عُرض الجيش - أي من عامته غير معروف - فدخله

---

(١) أي يصرخون من الالم.

(٢) متفق عليه.

(٣) عيون الاخبار: ١ / ١٧٢.

Scanned by CamScanner

ففتح الله عليهم الحصن فنادى مسلمة: اين صاحب النقب؟ فما جاءه احد، فنادى: إنى قد امرت الآذنَ بإدخاله ساعة ياتى، فعزمت عليه إلا جاء، فجاء رجل إلى الآذن فقال: استاذن لى على الأمير، فقال له: انت صاحب النقب؟ قال أنا اخبركم عنه، فاتى الاذن إلى مسلمة فاخبره عنه فاذن له فقال الرجل لمسلمة: إن صاحب النقب ياخذ عليكم ثلاثاً: ألا تسودوا اسمه أى لا تكبوه - في صحيفة إلى الخليفة، ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو؟ أى من أى قبيلة هو، قال مسلمة: فذاك له، قال الرجل: أنا هو.

فكان مسلمة بعد هذه الحادثة لا يصلى صلاة إلا قال: اللهم اجعلنى مع صاحب النقب(١).

* * *

(١) نقلاً عن كتاب رسالة المسترشدين تعليق الشيخ عبد الفتاح ابو غدة: ١٧٣، ١٧٤.

Scanned by CamScanner

من علامات الإخلاص

يقول الحارث المحاسبي: الصادق الذي لا يبالي لو خرج كل قدر له في قلوب الخلق من اجل صلاح قلبه، ولا يحب اطلاع الناس على مثاقيل الذر من حسن عمله، ولا يكره اطلاعهم على السيء من عمله، لان كراهيته ذلك دليل على انه يحب الزيادة عندهم وليس هذا من اخلاق الصديقين(١).

من علامات الإخلاص:

• سوء الظن بالنفس وعدم الاغترار بالعمل:

قال تعالى: ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. اي يعطون العطاء وهم خائفون وجلون الا يتقبل منهم، لخوفهم أن يكونوا قد قصروا في القيام بشروط الإعطاء وهذا من باب الإشفاق والاحتياط(٢).

كما قال الإمام احمد عن عائشة انها قالت: يا رسول الله يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: «لا يا بنت ابي بكر، يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل»(٣).

يقول ابن القيم: إن اقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس فلا يرى لنفسه حالا ولا مقاماً ولا سبباً يتعلق به ولا وسيلة منه يمن بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصرف، والإفلاس المحض دخول من كسر الفقر والمسكنة قلبه حتي وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع وشملته الكسرة من كل

---

(١) مقدمة المصرع: ٩٠.

(٢) مختصر ابن كثير: ٢/ ٥٦٨.

(٣) رواه احمد والترمذي وابن ابي حاتم.

جبهاته وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل وكمال فاقته وفقره إليه. فالعارفون كلهم يجمعون على أن التوفيق ألا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان أن يكلك الله تعالى إلى نفسك، فمن أراد الله به خيراً فتح له باب الذل والانكسار ودوام اللجوء إلى الله تعالى والافتقار إليه ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها ومشاهدة فضل ربه وإحسانه وجوده وبره وغناه وحمده[1].

ولقد كان هذا هو شان الصالحين دائماً، وكانوا لا يرون لانفسهم فضلا على أحد من خلق الله، بل يعتبر كل منهم نفسه اشر من في الأرض لما يظنه في نفسه من سوء.

فهذا المسور بن مخرمة كان لا يقوى ان يسمع شيئاً من القرآن لشدة خوفه، ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصيح الصيحة لشدة خوفه فما يعقل اياماً، حتى اتى عليه رجل من خثعم فقرأ عليه ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَٰنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ [مريم: ٨٥، ٨٦]. فقال أنا من المجرمين ولست من المتقين أعد على القول ايها القارئ، فاعادها عليه فشهق شهقة فلحق بالآخرة[2].

وقال السرى: إني لانظر إلى أنفى كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهى.

وقال أبو حفص: منذ أربعين سنة اعتقادى في نفسي أن الله ينظر إلى نظر السخط وأعمالى تدل على ذلك.

وقال الحسن البصرى رحمه الله: يخرج من النار رجل بعد ألف عام، يا ليتني كنت ذلك الرجل، وإنما قال ذلك لخوفه من الخلود وسوء الخاتمة، وروى أنه ما ضحك أربعين سنة، قال: وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه، وإذا تكلم كأنه يعاين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها، فإذا سكت كان النار

---

(١) الوابل الصيب: ٥، ٦ بتصرف يسير.

(٢) إحياء علوم الدين: ٤: ١٨٣- ١٨٨.

نسمر بن عهيه، وعوتب في شدة حزنه وخوفه، فقال: ما يؤمنني ان يكون الله قد اطلع فيّ على بعض ما يكره فمقتني قال: اذهب فلا غفرت لك، فانا اعمل في غير معتمل[1].

وعن كنانة بن جبلة السلمى قال: قال بكر بن عبد الله: إذا رايت من هو اكبر منك فقل: هذا سبقني بالإيمان والعمل الصالح فهو خير مني وإذا رايت من هو اصغر منك فقل: سبقته إلى الذنوب والمعاصي فهو خير مني[2].

وعن يونس قال: سمعت محمد بن واسع يقول: لو كان يوجد للذنوب ريح ما قدرتم ان تدنوا مني من نتن ريحي. وعنه قال: دخلنا على محمد بن واسع نعوده فقال: ما يغني ما يقول الناس إذا أخذ بيدي ورجلي فالقيت في النار[3].

عن جعفر بن سليمان قال: جاء محمد بن واسع إلى مالك بن دينار فقال: يا ابا يحيى إن كنت من اهل الجنة فطوبى لك. فقال ينبغي لنا إذا ذكرنا الجنة ان نخزى[4].

وعن السرى بن يحيى عن مالك بن دينار قال: والله لو وقف ملك بباب المسجد وقال: يخرج شر من في المسجد لبادرتكم إليه[5].

وقال رجل لمالك بن دينار: يا مرائي. قال: متى عرفت اسمي؟ ما عرف اسمي غيرك[6].

عن سفيان قال: بلغنا ان ام الربيع بن خيثم كانت تنادى فتقول: يا بني، يا ربيع، الا تنام، فيقول: يا اماه من جن عليه الليل وهو يخاف البيات وهجوم

(١) إحياء علوم الدين: ٤/ ١٨٣- ١٨٨.

(٢) صفة الصفوة: ٣: ٢٤٨.

(٣) صفة الصفوة: ٣: ٢٦٨.

(٤) المصدر السابق: ٣: ٢٧٩.

(٥) المصدر السابق: ٣: ٢٨٢.

(٦) المصدر السابق: ٣: ٢٨٧.

Scanned by CamScanner

الأعداء ليلاً، حق له ألا ينام. قال: فلما بلغ ما يلقى من البكاء والسهر نادته فقالت: يا بنى، لعلك قتلت قتيلاً؟ فقال: نعم يا والدة، قتلت قتيلاً، فقالت: ومن هذا القتيل يا بنى نتحمل على أهله فيعفوك؟ والله لو علموا ما تلقى من البكاء والسهر لقد رحموك، فيقول يا والدتى هي نفسى[١].

وعن مسعود قال: قال عون بن عبد الله: **كفى بك من الكبر أن ترى لك فضلاً على من هو دونك**[٢].

وعن عبد الرحمن بن عبد الله قال: قال سفيان الثورى: إنى لأضع يدى على رأسى من الليل إذا سمعت صيحة فأقول: قد جاءنا العذاب[٣].

وعن أبى جعفر الحذاء قال: سمعت الفضيل بن عياض يقول: أخذت بيد سفيان بن عيينة في هذا الوادى فقلت له: إن كنت تظن أنه بقى على وجه الأرض شر منى ومنك فبئس ما تظن[٤].

وعن المزنى قال: دخلت على الشافعى في علته التى مات فيها فقلت: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت من الدنيا راحلاً ولإخوانى مفارقاً، ولكأس المنية شارباً، ولسوء أعمالى ملاقيا وعلى الله تعالى وارداً فلا أدرى روحى تصير إلى الجنة فأهنئها، أو إلى النار فأعزيها، ثم بكى وأنشا يقول:

ولما قسا قلبى وضاقت مذاهبى — جعلت الرجا منى لعفوك سلما

تعاظمنى ذنوبى فلما قرنتها — بعفوك ربى كان عفوك أعظما

ومازلت ذا عفو عن الذنب لم تزل — تجود وتعفو منةً وتكرما[٥]

وعن جعفر بن محمد بن نصير قال: سمعت الجنيد قال: سمعت السرى قال:

---

(١) صفة الصفوة: ٣/ ٦٣.

(٢) صفة الصفوة: ٣/ ١٠١.

(٣) صفة الصفوة: ٣/ ١٤٨.

(٤) صفة الصفوة: ٣/ ٢٤١.

(٥) صفة الصفوة: ٢/ ٣٥٨.

Scanned by CamScanner

[illegible] قيل: ولا على [illegible]، قال: ولا على المغضبين(1).

[illegible] وقالت أم محمد بن كعب القرظي لمحمد: يا بني لولا أني أعرفك صغيراً طيباً وكبيراً طيباً لظننت أنك أحدثت ذنباً موبقاً لما أراك تصنع بنفسك في الليل والنهار، فقال: يا أماه وما يؤمنني أن يكون الله قد اطلع علي وأنا في بعض ذنوبي فمقتني فقال: اذهب، لا أغفر لك(2).

وعن عكرمة عن محمد بن المنكدر أنه جزع عند الموت، فقيل له: لم تجزع؟ قال: أخشى آية من كتاب الله عز وجل: ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ ﴾ [الزمر: ٤٧]. فإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب(3).

فإن كان هذا هو حال الصالحين، فما السبيل للوصول إلى ما وصلوا إليه؟

أو بعبارة أخرى:

ما الدواء الذي يخلص العبد من رؤية عمله ورضاه به؟

يصف ابن القيم الدواء فيقول:

١- مشاهدة «العبد» لمنة الله عليه وفضله وتوفيقه له، وأنه بالله لا بنفسه، فالخير الذي يصدر منه إنما هو من الله وبه، لا من العبد ولا به كما قال تعالى:

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٢١].

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ﴾ [الحجرات: ٧].

فكل خير في العبد فهو مجرد فضل الله ومنته وإحسانه ونعمته.

٢ - ومطالعة عيوب عمله وآفاته، وتقصيره فيه وما فيه من حظ النفس ونصف الشيطان فما من عمل من الأعمال إلاَّ وللشيطان فيه نصيب، وإن كل

---

(1) صفة الصفوة: ٢/ ٣٧٥

(2) صفة الصفوة: ٢/ ١٣٣.

(3) صفة الصفوة: ٢/ ١٤٤.

Scanned by CamScanner

عمل للنفس فيه حظ. سئل النبي ﷺ عن التفات الرجل في صلاته فقال: هو اختلاس يختلسه الشيطان من صلاة العبد.

٣ - علمه بما يستحقه الرب جل جلاله من حقوق العبودية وآدابها الظاهرة والباطنة وشروطها، وأن العبد أضعف وأعجز وأقل من أن يوفيها حقها، وأن يرضى بها ربه، فالعارف لا يرضى بشيء من عمله. فسوء ظنه بنفسه وعمله وبغضه لها، وكراهته لأنفاسه وصعودها إلى الله يحول بينه وبين الرضا بعمله، والرضا عن نفسه.

وقال بعضهم آفة العبد رضاه عن نفسه، ومن لا يتهم نفسه عل دوام الأوقات فهو مغرور(١).

كان يوسف بن أسباط يقول: ما حاسبت نفسي قط إلأ وظهر لى كاننى مراء خالص، وكان الفضيل بن عياض يقول: من أراد أن ينظر إلى مراء فلينظر إلي(٢).

● ومن علامات الإخلاص استواء المدح والدم:

من سمات المخلصين أنهم لا يفرحون إذا مدحوا، ولا يحزنون إذا ذموا، وللمدح أخطار عظيمة ينبغى أن يتيقظ لها الأخ المسلم، ولقد نبه رسولنا الكريم إلى ذلك كثيراً.

فقد مدح رجل رجلاً عنده ﷺ فقال له: ويحك، قطعت عنق صاحبك، لو سمعها ما أفلح، ثم قال: إن كان أحدكم لابد مادحاً أخاه فليقل: أحسب فلاناً ولا أزكي على الله أحداً، حسيبه الله إن كان يرى أنه كذلك(٣). وقال ﷺ:

«إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب»(٤).

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: ٣٢٣، ٣٢٤.

(٢) تنبيه للمغتربين: ٨- ١٣.

(٣) متفق عليه.

(٤) رواه مسلم.

Scanned by CamScanner

خطورة المدح:

قال عمر رضي الله عنه المدح هو الذبح، وذلك لان المذبوح هو الذي يفتر عن العمل، والمدح يوجب الفتور، او لان المدح يورث العجب والكبر، وهما مهلكان كالذبح لذلك شبهه به.

فالممدوح يضره المدح من وجهين: احدهما: انه يحدث فيه كبرا وإعجابا وهما مهلكان.

والثاني: هو انه إذا اثنى عليه بالخير فرح به وفتر ورضي عن نفسه ومن اعجب بنفسه قل تشمره، وإنما يتشمر للعمل من يرى نفسه مقصراً، فاما إذا انطلقت الالسن بالثناء عليه ظن انه قد ادرك، لهذا قال عليه السلام: قطعت عنق صاحبك لو سمعها ما افلح.

قال على رضى الله عنه لما أثنى عليه: اللهم اغفر لى ما لا يعلمون، ولا تؤاخذني بما يقولون، واجعلنى خيراً مما يظنون. وقال مطرف: ما سمعت قط ثناء ولا مدحاً إلاّ تصاغرت إلى نفسى[1].

اختلاف أحوال الناس في المدح والذم:

يقول الإمام ابو حامد الغزالى:

من الناس من يتمنى المدح والثناء وانتشار الصيت فيتوصل إلى نيل ذلك بكل ما يمكن حتى يرائى بالعبادات، ولا يبالى باقتراف المحظورات لاستمالة قلوب الناس واستنطاق السنتهم بالمدح، وهذا من الهالكين، ومنهم من يريد ذلك ويطلبه بالمباحات، ولا يطلبه بالعبادات، ولا يباشر المحظورات، وهذا على شفا جرف هار، فإن حدود الكلام الذي يستميل به القلوب، وحدود الاعمال لا يمكنه ان يضبطها فيوشك ان يقع فيما لا يحل لنيل هذا الحمد، فهو قريب من الهالكين جداً.

ومنهم من يريد المدح ولا يسعى لطلبه، ولكن إذا مدح سبق السرور إلى قلبه فإذا لم يقابل ذلك بالمجاهدة، ولم يتكلف الكراهية فهو قريب من ان يستجره فرط

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣: ١٥٩- ١٦١.

Scanned by CamScanner

السرور إلى الوثبة التى قبلها، وإن جاهد نفسه في ذلك وكلف قلبه الكراهية، وبغض السرور إليه بالتفكر في آفات المدح فهو في خطر المجاهدة، فتارة تكون اليدُ له، وتارة تكون عليه.

علاج حب المدح وكراهية الذم:

يقول الإمام ابو حامد الغزالى:

اعلم ان أكبر الناس إنما هلكوا بخوف مذمة الناس وحب مدحهم، فصارت حركاتهم كلها موقوفة على ما يوافق رضا الناس رجاء المدح وخوفاً من الذم، وذلك من المهلكات فيجب معالجته «بان» ترجع إلى عقلك وتقول لنفسك: هذه الصفة التى يمدحك بها انت متصف بها ام لا؟ فإن كنت متصفاً بها فهي إما صفة تستحق بها المدح كالعلم والورع، وإما صفة لا تستحق المدح كالثروة والجاه والاعراض الدنيوية، فإن كانت من الأعراض الدنيوية فالفرح بها كالفرح بنبات الارض الذي يصير على القرب هشيماً تذوره الرياح، وهذا من قلة العقل.

وإن كانت الصفة مما تستحق الفرح بها كالعلم والورع فينبغى الا يفرح بها لأن الخاتمة غير معلومة ففى الخوف من سوء الخاتمة ما يشغل عن الفرح بكل ما في الدنيا بل الدنيا دار أحزان وغموم، لا دار فرح وسرور.

وإن كانت هذه الصفة التى مدحت بها انت خال عنها ففرحك بالمدح غاية الجنون.

حال المؤمن عند مدحه أو ذمة:

إن أكمل الدرجات في هذا الأمر ان يستوى عند المؤمن ذامه ومادحه فلا تغمه المذمة، وهذا مما يظنُّه بعض العباد بنفسه، ويكون مغروراً إن لم يمتحن نفسه بعلامات، وعلاماته ألاَّ يجد في نفسه استثقالاً لذام عند تطويله الجلوس عنده أكثر مما يجده في المادح، والا يجد في نفسه زيادة هزة ونشاط في قضاء حوائج المادح فوق ما يجده في قضاء حوائج الذام، والا يكون انقطاع الذام عن مجلسه أهون عليه من انقطاع المادح، والا يكون موت المادح المطرى له أشد نكاية في قلبه من

Scanned by CamScanner

موت الذام، وألا تكون زلة المادح أخف على قلبه وفي عينه من زلة الذام.

وما أبعد ذلك وما أشده على القلوب! وأكثر العباد فرحهم بمدح الناس لهم مستبطن في قلوبهم وهم لا يشعرون، حيث لا يمتحنون أنفسهم بهذه العلامات[١].

وأخيرًا فقد قيل ليحيى بن معاذ: **متى يكون العبد مخلصاً؟**.

فقال: **إذا صار خلقه كخلق الرضيع لا يبالى من مدحه أو ذمه**[٢].

*** ومن علامات الإخلاص الحرص عل إخفاء الطاعات:**

عن أبى موسى الأشعرى قال: خرجنا مع رسول ﷺ في غزاة، ونحن ستة نفر بيننا بعير نتعقبه، قال: فنقبت أقدامنا، فنقبت قدماى، وسقطت أظافرى فكنا نلف على أرجلنا الخرق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كنا نعصب على أرجلنا من الخرق.

قال أبو بريدة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك. كانه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه[٣].

ولقد كان هذا هو دأب الصالحين من أمثال الصحابة، والسلف الصالح رضوان الله عليهم، وكانوا يحرصون على إخفاء طاعتهم لله عز وجل - بخلاف الفرائض - فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يرى رجلاً يطأطىء رقبته، فقال له: يا صاحب الرقبة ارفع رقبتك ليس الخشوع في الرقاب، إنما الخشوع في القلب، ورأى أبو أمامة الباهلى رجلاً في المسجد يبكى في سجوده، فقال: أنت أنت، لو كان هذا في بيتك[٤].

وعن سلام بن أبى مطيع، قال: كان أيوب «السختيانى» يقوم الليل يخفى ذلك، فإذا كان قبيل الصبح رفع صوته كانه إنما قام تلك الساعة[٥].

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/٢٩٨- ٢٩٢. (٢) تنبيه المغترين: ٨٧- ١٣.

(٣) رواه مسلم.

(٤) صفة الصفوة: ٣/ ٢٩٢.

(٥) إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٩٦.

Scanned by CamScanner

وكان يقول: والله ما صدق الله عبدٌ إلا سره الا يُشعر بمكانه.

عن شيبة بن نعامة قال: كان على بن الحسين يبخل، فلما مات، وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.

عن محمد بن إسحاق قال: كان الناس من أهل المدينة يعيشون لا يدرون من اين كان معاشهم، فلما مات على بن الحسين فقدوا ما كان يؤتوْن به الليل.

وعن عمرو بن ثابت قال: لما مات على بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سَّود في ظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقالوا: كان يحمل جُرُب الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة[1].

وعن سفيان قال: اخبرتنى ام الربيْع بن خيثم قال: كان عمل الربيع كله سراً، إن كان ليجىء الرجل، وقد نشر المصحف فيغطيه بثوبه[2].

وعن زائدة بن قدامة قال: صام منصور بن المعتمر أربعين سنة، قام ليلها وصام نهارها، وكان في الليل يبكي فتقول له امه: يا بنى، أقتلت قتيلاً؟ فيقول: أنا أعلم بما صنعت بنفسى، قال: فإذا اصبح كحل عينه، ودهن رأسه، وبرق شفتيه وخرج إلى الناس[3].

وعن خلف بن تميم قال: سمعت أبا تميم بن مالك يقول: كان منصور بن المعتمر إذا صلى الغداة أظهر النشاط لأصحابه، فيحدثهم ويكثر إليهم، ولعله إنما بات قائما عل أطرافه كل ذلك ليخفى عليهم العمل.

وعلى كل منا أن يعود نفسه على إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها، كما تغلق الأبواب دون الفواحش، حتى يقنع قلبه بعلم الله واطلاعه على عبادته ولا تنازعه النفس إلى طلب علم غير الله به[4].

---

(١) صفة الصفوة: ٢/ ٩٦.

(٢) المصدر السابق: ٣/ ٦١.

(٣) المصدر السابق: ٣/ ١١٢.

(٤) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣١٢.

Scanned by CamScanner

فمن وجد فى نفسه استشرافاً لمعرفة الناس بعباداته وطاعته فليتهم إخلاصه،

فكما يقول ابن عطاء في حكمه: استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك دليل على عدم صدقك في العبودية».

ويقول الحسن البصري: أدركت أقواما كان الرجل ليجلس مع القوم وإنه لفقيه وما يشعر به أحد حتى يقوم، ولقد أدركت أقواماً يأتى أحدهم الزوْر فيقوم فيصلى وما يشعر به الزور، ولقد أدركت أقواما وما من عمل يقدرون أن يعملوه سراً فيكون علانية أبداً.

ولقد أدركت أقواما يجمع أحدهم القرآن وما يعرف به جاره، ولقد أدركت أقواما يجتهدون في الدعاء وما يسمعهم أحد.

ويقول محمد بن واسع: أدركت رجالاً كان الرجل يكون رأسه مع رأس امرأته على وسادة واحدة قد بل ما تحت خده من دموعه لا تشعر به امرأته ولقد أدركت رجالاً يقوم أحدهم في الصف فتسيل دموعه على خده لا يشعر به الذي إلى جانبه.

هل يصح ترك الطاعة خوفاً من الرياء ودخول الآفات؟

يقول الإمام أبو حامد الغزالى:

اعلم أن من الناس من يترك العمل خوفاً من أن يكون مرائياً به، وذلك غلط وموافقة للشيطان.

فإذا عقد العبد عمله على الإخلاص ثم طرأ الرياء ودواعيه، فينبغى أن يجاهد في الدفع، ولا يترك العمل لكي يرجع إلى عقد الإخلاص، ويرد نفسه إليه قهراً، حتى يتم العمل، لأن الشيطان يدعوك أولاً إلى ترك العمل، فإذا بقى يقول لك: هذا العمل ليس بخالص وأنت مراء، وتعبك ضائع، فأى فائدة لك من عمل لا إخلاص فيه؟ حتى يحملك بذلك على ترك العمل، فإذا تركته فقد تحقق مراده.

ومن هذا القبيل أن يترك الإنسان العمل خوفاً من قول الناس إنه مراء، فهذا من

Scanned by CamScanner

مكائد الشيطان، لأنه أولاً، أساء الظن بالمسلمين وما كان من حقه أن يظن بهم ذلك، ثم إن كان مخلصاً فلا يضره قولهم ويفوته بهم ثواب العبادة، وترك العمل خوفاً من قولهم إنه مراء. هو عين الرياء. فلولا حبه لمحمدتهم، وخوفه من ذمهم ما تأثر بقولهم إنه مراء أو مخلص، وأي فرق بين أن يترك الإنسان العمل خوفا من أن يقال إنه مراء، وبين أن يحسن العمل خوفا من أن يقال إنه غافل مقصر؟ بل ترك العمل أشد من ذلك فهذه كلها مكائد الشيطان على العُبّاد الجهال.

ثم كيف يطمع أن يتخلص من الشيطان بأن يترك العمل ، والشيطان لا يخليه، بل يقول له: الآن يقول الناس إنك تركت العمل ليقال إنك مخلص، لا يشتهي الشهرة، فيضطرك بذلك إلى أن يهرب، فإن هربت ودخلت سرداباً تحت الأرض، ألقى في قلبك حلاوة معرفة الناس لتزهدك، وهربك منهم وتعظيمهم لك بقلوبهم على ذلك، فكيف تتخلص منه؟ بل لا نجاة منه إلاّ بأن تلزم قلبك معرفة آفة الرياء، وهو أنه ضار في الآخرة ولا نفع فيه في الدنيا ليلزم الكراهة والإباءة قلبك، وتستمر مع ذلك على العمل ولا تبالي.

فما دمت تجد باعثاً دينياً على العلم فلا تترك العمل وجاهد خاطر الرياء، والزم قلبك الحياء من الله إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، ولو اطلع الخلق على قلبك، وأنك تريد حمدهم لمقتوك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان أنت مراء فاعلم كذبه وخداعه بما تصادف في قلبك من كراهية الرياء، وخوفك منه، وحيائك من الله تعالى، وإن لم تجد في قلبك له كراهية، ومنه خوفاً، ولم يبق باعث ديني بل مجرد باعث الرياء، فاترك العمل عند ذلك وهو بعيد، فمن شرع في العمل لله فلا بد أن يبقى معه أصل قصد الثواب[1].

* * *

---

(١) إحياء علوم الدين: ج ٣ / ٣٢٢، ٣٢٣.

Scanned by CamScanner

بيان ما يصح من نشاط العبد للعبادة بسبب رؤية الخلق وما لا يصح:

يقول الإمام ابو حامد الغزالي:

اعلم ان الرجل قد يبيت مع القوم في موضع فيقومون لتهجد أو يقوم بعضهم فيصلون الليل كله أو بعضه، وهو ممن يقوم في بيته ساعة قريبة، فإذا رآهم انبعث نشاطه للموافقة حتى يزيد على ما كان يعتاده، أو يصلي مع انه كان لا يعتاد الصلاة بالليل اصلاً، وكذلك قد يقع في موضع يصوم فيه أهل الموضع فينبعث له نشاطه في الصوم، ولولاهم لما انبعث هذا النشاط، فهذا ربما يظن انه رياء، وان الواجب ترك الموافقة، وليس كذلك على الإطلاق بل له تفصيل، لان كل مؤمن راغب في عبادة الله تعالى، وفي قيام الليل، وصيام النهار، ولكن قد تعوقه العوائق، ويمنعه الاشتغال، ويغلبه التمكن من الشهوات، أو تستهويه الغفلة، فربما تكون مشاهدة الغير سبب زوال الغفلة، أو تندفع العوائق والاشغال في بعض المواضع، فينبعث له النشاط، فقد يكون الرجل في منزله فتقطعه الاسباب عن التهجد مثل تمكنه من النوم على فراش وثير، أو تمكنه من التمتع بزوجته، أو المحادثة مع أهله واقاربه، أو الاشتغال باولاده، او مطالعه حساب لدفع معامليه، فإذا أوقع في منزل غريب اندفعت عنه هذه الشواغل التى تفتر رغبته عن الخير، وحصلت له أسباب باعثة على الخير، كمشاهدته إياهم وقد اقبلوا على الله وأعرضوا عن الدنيا، فإنه ينظر إليهم فينافسهم، ويشق عليه ان يسابقوه بطاعة الله فتتحرك داعيته للدين لا للرياء.

فهذا وامثاله من الاسباب يتصور وقوعه ويكون السبب فيه مشاهدة الناس وكونه معهم، والشيطان مع ذلك ربما يصد عن العمل، ويقول: لا تعمل فإنك تكون مرائياً، إذا كنت لا تعمل في بيتك، ولا تزد عن صلاتك المعتادة، وقد تكون رغبته في الزيادة لاجل رؤيتهم وخوفاً من ذمهم ونسبتهم إياه إلى الكسل، لا سيما إذا كانوا يظنون به انه يقوم الليل.

والميزان الصحيح في ذلك ان يعرض على نفسه انه لو رأى هؤلاء يصلون من

حيث لا يرونه بل من وراء حجاب، وهو في ذلك الموضع بعينه، هل كانت نفسه تسخو بالصلاة وهم لا يرونه؟ فإن سخت نفسه فليصل، فإن باعثه الحق، وإن كان يثقل على نفسه لو غاب عن أعينهم، فليترك فإن باعثه الرياء.

وكذلك قد يبكي جماعة ينظر إليهم فيحضره البكاء خوفا من الله لا من الرياء ولو سمع ذلك الكلام وحده ما بكى ولكن بكاء الناس يؤثر في ترقيق القلب، وقد لا يحضره البكاء، فيتباكى إذ يخشى على قلبه قساوة القلب حين يكون ولا تدمع عينه فيتباكى تكلفاً وذلك محمود، وعلامة الصدق فيه أن يعرض على نفسه أنه لو سمع بكاءهم من حيث لا يرونه هل كان يخاف على نفسه القساوة فيتباكى أم لا؟ فإن لم يجد ذلك عند تقدير الاختفاء عن أعينهم فإنما خوفه من أن يقال إنه قاسى القلب فينبغي أن يترك التباكي[1].

وهناك أمر آخر يتساءل عنه البعض أحياناً: أنه إذا قام أحدنا بعمل ما، وقصد به وجه الله وأصبح الناس يتحدثون به، ويثنون عليه، فوجد في ذلك سروراً في نفسه فهل يعد ذلك السرور الذى عرض له من الرياء.

يجيب الدكتور عبد الله ناصح علوان فيقول:

لما كان قصده في العمل الإخلاص لله وابتغاء مرضاته، ثم اطلع الناس على بعض أعماله وطاعته وذهبوا يمتدحونه، ويثنون عليه، وينقلون إلى الآخرين أخبار الصالحين وحصل له سرور من جراء ما أخبر وما سمع، فهذا الذي يحصل ليس من الرياء في شيء بل هو عاجل بشرى المؤمن في الدنيا، كما ثبت في الصحيح، فقد روى الإمام مسلم في صحيحه: عن أبى ذر رضى الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: **«أرأيت الرجل الذي يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه؟ قال: تلك عاجل بشرى المؤمن»** وهذا معنى قوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي**

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٣٣٠، ٣٣١.

Scanned by CamScanner

﴿... الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم﴾ [يونس٦٢، ٦٣]

فاما إذا استشرف هذا السرور، وهذه البشرى قبل العمل، وكان كل همه اطلاع الناس عليه حتى يمدحه الناس ويعظمونه، ويقضون حوائجه، فهذا - ولا شك - من الرياء أعاذنا الله منه(١).

* ومن علامات الإخلاص حب الخفاء وكراهية الشهرة:

قال رسول الله ﷺ: «**رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك**»(٢).

وقال ﷺ: «**إن من أمتى من لو أتى أحدكم يسأله ديناراً لم يعطه إياه، ولو سأله درهماً لم يعطه إياه، ولو سأله فلساً لم يعطه إياه، ولو سأل الله الجنة لأعطاه أياها، رب ذى طمرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبره**»(٣).

ودخل عمر رضى الله عنه - المسجد فرأى معاذ بن جبل يبكى عند قبر رسول الله ﷺ، فقال: ما يبكيك؟ فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن اليسير من الرياء شرك، وإن الله يحب الأتقياء الأخفياء، الذين إن غابوا لم يفتقدوا، وإن حضروا لم يعرفوا، قلوبهم مصابيح الهدى، ينجون من كل غبراء مظلمة**»(٤).

وقال ابن مسعود: كونوا ينابيع العلم، مصابيح الهدى، وأحلاس(٥) البيوت،

---

(١) عقبات في طريق الدعاة. عبد الله ناصح علون: ١/ ٢٦، ٢٧.

(٢) أخرجه مسلم من حديث أبي هريرة: «رب أشعث مدفوع الأبواب لو أقسم على الله لأبره» وللحاكم: «رب أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبره» وقال صحيح الإسناد.

(٣) في الأوسط من حديث ثوبان بإسناد صحيح.

(٤) أخرجه الطبراني والحاكم واللفظ له وقال صحيح الإسناد.

(٥) الحلس هو ما يبسط في البيت من حصير ونحوه، والمقصود ملازمة البيوت.

Scanned by CamScanner

سُرُج الليل، جدد القلوب خلقان الثياب، تعرفون في أهل السماء، تخفون في أهل الأرض[1].

ذم من سعى إلى الشهرة:

يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

اعلم أصلحك الله أن أصل الجاه هو انتشار الصيت والاشتهار وهو مذموم، بل المحمود الخمول إلا من شهّره الله لنشر دينه من غير تكلف طلب الشهرة منه.

قال إبراهيم بن أدهم: ما صدق الله من أحب الشهرة.

وقال أيوب السختياني: والله ما صدق الله عبدٌ، إلا سره ألا يشعر بمكانه.

وقال سليم بن حنظلة: بينما نحن حول أبى بن كعب نمشى خلفه، إذ رآه عمر فعلاه بالدِّرَّة: فقال انظر يا أمير المؤمنين ما تصنع؟ فقال: إن هذه ذلة للتابع، فتنة للمتبوع.

وعن الحسن قال: خرج ابن مسعود يوماً من منزله فاتبعه ناس، فالتفت إليهم، فقال: علام تتبعوني، فوالله لو تعلمون ما أغلق عليه بابى، ما اتبعنى منكم رجلان.

وروى أن رجلاً صحب ابن محيريز في سفر فلما فارقه، قال: أوصنى فقال: إن استطعت أن تعرف ولا تُعرف، وتمشى ولا يُمشى إليك، وتسأل ولا تسئل فافعل.

قال بشر الحافى: لا يجد حلاوة الإيمان رجل يحب أن يعرفه الناس[2] وقال آخر: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرياسة.

فإن قلت:

فأى شهرة تزيد على شهره الأنبياء، والخلفاء الراشدين، وأئمة العلماء! فكيف فاتهم فضيلة الخمول؟.

فاعلم أن المذموم طلب الشهرة، فأما وجودها من جهة الله سبحانه من غير تكلف من العبد فليس بمذموم، نعم فيه فتنة على الضعفاء دون الأقوياء، وهو

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/٢٧٧.

(٢) إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٧٥، ٢٧٦.

Scanned by CamScanner

كالغريق الضعيف إذا كان معه جماعة من الغرقي، فالأولى به ألا يعرفه أحد منهم فإنهم يتعلقون به فيضعف عنهم فيهلك معهم، وأما القوى فالأولى أن يعرفه الغرقى ليعلقوا به فينجيهم ويثابُ على ذلك(١).

وأخيراً، فيقول رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه: «إن أغبط أوليائي عندي لمؤمن خفيف الحاذ(٢) ذو حظ من صلاة أحسن عبادة ربه، وأطاعه في السر، وكان غامضاً في الناس، لا يشار إليه بالأصابع، وكان رزقه كفافاً، فصبر على ذلك ثم نقر بيده فقال: عجلت منيته، قلت بواكية قل تراثه»(٣).

من مظاهر الإخلاص عند الداعية:

تتجلى مظاهر الإخلاص عند الداعية في أنه لا يريد من دعوته إلا وجه الله، فلا يريد أن يحظى بمكانة اجتماعية مرموقة، ولا يهمه كثيراً أن يكون مرفوعاً، أو يكون مغموراً بين الناس.

ولا يبالي بالناس، ولا بثنائهم، ولا يسعى لكسب إعجابهم، ومحبة مدحهم، واحترامهم، وليس معنى هذا أن يكون حريصاً على أن يذمه الناس، ويسيئون به الظن ... لا وإنما ينبغي له أن يسير في الدعوة على الطريق السوى، لا يريد إلاّ وجه الله.

لا يبتغي من دعوته أن يكسب المال الوفير... فما أسوأ الذين يزعمون أنهم يريدون الله ورضوانه، وهم في حقيقة الأمر لا يريدون إلاّ الدرهم والدينار.

ويتجلى الإخلاص في الداعية في أن يُسَرَّ إذا تحقق الخير على يدى غيره، كما يُسَر لو تحقق على يديه.

---

(١) إحياء علوم الدين: ٣/ ٢٧٧.

(٢) خفيف الحاذ: خفيف الحال قليل المال، قلت بواكيه: قل من يبكي عليه، قل تراثه: قل ميراثه.

(٣) رواه الترمذي وقال حديث حسن ورواه ابن ماجة والحاكم إلا أنهما قالا: «أغبط الناس عندي» والباقي بنحوه، وقال الحاكم صحيح الإسناد.

عقبات في طريق الإخلاص:

إن طريق الإخلاص لله مليء بالعقباب والأشواك وينبغى لمن أرد السير في هذا الطريق أن يكون على دراية بتلك المعوقات ليسهل عليه اجتيازها، أما من سار في هذا الطريق وهو لا يعلم عن طبيعته شيئاً فما أيسر توقفه، وما أسرع نكوصه.

والعقبات التى تقف أمام السائر إلى الله كثيرة نذكر منها:

١ - النفس:

خلق الله لكل عبد نفساً أمارة بالسوء ليختبر مدى صدق عبوديته له، فالنفس هي العقبة الكئود التى تقف بيننا وبين الإخلاص لله، هى نفس جاهلة ظالمة تريد دائماً الاستئثار بالخير.

«فمن شأنها أبداً طلب الحظوظ والفرار من الحقوق، فهى لا تسعى إلا في ذلك، ومن حاسب نفسه وراقب خواطره تبين له مصداق هذا، فقد تجد من النشاط واللذة في نوع من العبادة ما لا تجده في نوع آخر، وإن كان هذا النوع الآخر أتم فضيله منه، وما ذاك إلا من أجل أن حظها فيه أكثر من الآخر».

لذلك قد تجد الواحد منا كثير العمل .. كثير الطاعات .. قليل الإخلاص.. لماذا؟ لان نفسه تحول بينه وبين إخلاص عمله لله باستيلائها عليه، فترى أحدنا يتصدق على الفقراء مثلا ويجتهد على الا يراه أحد من الناس مخافة الوقوع في الرياء، ويظن بذلك أنه قد أخلص عمله لله، ولكن نفسه تحول بينه وبين ذلك، فهى لا تقبل أن يقوم العبد بأداء عمل دون أن يكون لها فيه نصيب، فإما أن تدفعه للإعجاب بعمله فيظن أنه أفضل من غيره بهذا العمل فتنتشى نفسه بذلك، أو تدفعه للمن على من تصدق عليه، أو انتظار شكره، أو قضاء حوائجه.

وقد يصلى أحدنا بالليل والناس نيام لا يراه إلا الله فيبكى على ذنوبه وتقصيره، ويظن بعد ذلك أن هذا القيام كان خالصاً لله ولكن نفسه لها رأى آخر، فكيف يجهدها ويوقظها من النوم اللذيذ ويرغمها على ترك الفراش الوثير دون مقابل؟! فتراها تزين له التحدث بفعله أمام الناس أو التلميح بما يوحى أنه من أهل القيام، فإن

Scanned by CamScanner

جاهدها في ذلك عملت على إقناعه بانه افضل من غيره بهذا القيام أو انه قد اصبحت له عند الله مكانة بهذا العمل فيغتر ويتكبر.. وهكذا في كثير من الأعمال يكون ظاهرها لله وحقيقتها وجوهرها للنفس.

ومما يزيد من صعوبة هذه العقبة أن النفس محبوبة وما تدعو إليه كذلك محبوب.

٢- الهوى:

الهوى كما يعرفه العلماء هو ما تميل إليه النفس، وكل نفس لم يروضها صاحبها بالمجاهدة تهوى الراحة والكسل والحصول على الشهوات الحسية والمعنوية، تحب النجاة وتكره الملامة، تهوى الرفعة وانتشار الصيت والجاه وتكره التكليف والمذمة.

فأيما إنسان سار وراء هواه فهو في واقع الأمر يسير إلى النار، لذلك كان التحذير الشديد من خطورة اتباع الهوى.

قال تعالى: ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴾ [الكهف: ٢٨]. وقال عز وجل: ﴿ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴾ [الفرقان: ٤٣].

ولقد طالبنا الله سبحانه وتعالى ـ بجهاد أنفسنا ونهيها عن هواها لنفوز برضاه وجنته قال تعالى: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

٣- الدنيا:

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]. وعن كعب بن مالك رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه»(١).

---

(١) رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

Scanned by CamScanner

فالحرص على الدنيا من العقبات الرئيسية التي تقف أمام السائر إلى الله، فلقد تزينت الدنيا وأخفت وجهها القبيح عنا، ونصبت شباكها، فما لنا من حبائلها إلا من رحمه الله.. وقليل ما هم.

فمن الناس من أغرته الدنيا بالمال فأصبح نهما لا يشبع من جمعه وتحصيله، ومنهم من أغرته الدنيا بالعلو فيها، فتنافس عليها وتصارع من أجلها.

والأمثلة العملية على ذلك كثيرة:

فمن يسعى إلى الإمارة والمسئولية، إنما يسعى في حقيقة الأمر إلى الدنيا مهما حاول اختلاق الأسباب والمعاذير لهذا السعي بأنه ـ مثلا ـ يريد خدمة الدين ويبغى مصلحة الدعوة، وأنه يرى في نفسه الكفاءة لهذا المنصب دون غيره.

ولقد رأينا بأعيننا أناساً كنا نحسبهم من الصالحين المخلصين، جاهدوا في سبيل الله سنوات طويلة وتحملوا الكثير والكثير، وعندما جاء النصر وحان وقت القطاف وتوزيع المناصب، وجدنا الكثير منهم يتصارع مع إخوانه من أجل الفوز بتلك المناصب.

أي إخلاص هذا؟!!.. بل هي الدنيا تملأ القلوب وغيرهم في أماكن متعددة عندما قيل لهم اتركوا أماكنكم بالمقدمة وكونوا بالخلف، هاجوا وماجوا وتذمروا، فإن سألهم سائل لماذا تلكم الثورة؟ قالوا: إن مصلحة الدين ومصلحة العمل تقتضي وجودنا بالأمام قادة وموجهين.

أي عقل عند هؤلاء؟! وأي إخلاص يدعونه؟!.

كيف يُستبدل الفرح والسرور بالحزن والغم؟

فالواجب يحتم على هؤلاء إن كانوا من المخلصين وممن يريدون الدار الآخرة ولا يريدون العلو في الأرض، أن يكونوا من أشد الناس فرحا بذلك، بل ويصبح يوم تنحيتهم عن مناصبهم عيداً وموسماً لهم، ولم لا ومغارم الإمارة كثيرة، وفتنتها عظيمة، ولا يكاد ينجو من التأثر السلبي بها أحد، لذلك كان الأصل الشرعي في مسألة الإمارة أنها لا تعطى لمن طلبها، لأنه بطلبه إياها فإنما يطلب الدنيا.

Scanned by CamScanner

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إنكم ستحرصون على الإمارة وستكون ندامة يوم القيامة**»(١).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: دخلت على النبي ﷺ أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحدهما: يا رسول الله أمِّرنا على بعض ما ولاك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «**إنا والله لا نولي هذا العمل أحداً سأله، أو أحداً حرص عليه**»(٢).

٤ ـ الشيطان:

هو عدونا الأكبر.. أخرج أبوينا من الجنة، ويعمل بكل مكر على الحيلولة دون دخولنا إياها.

قال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾ [فاطر: ٦].

فالشيطان يستغل جهل النفس وولوعها باستيفاء حظوظها فيوسوس ويزين لها ما يوافق هواها من أعمال تبعد العبد عن الله، فتلح النفس بدورها على القلب ولا تتركه حتى يأمر الجوارح بتنفيذ طلباتها، فكل ما يشغل باله هو إضلال الناس جميعًا، فإن رأى أحداً من الناس قد بدأ يتجه إلى الله حشد كل أسلحته ليعيده إلى طريقه مرة أخرى، ويستعين على ذلك بشياطين الجن والإنس ـ وما أكثرهم ـ فإن لم يستجب له زين له أعمالا ظاهرها الخير لكنها في النهاية تؤدي إلى الابتعاد عن طريق الله أو إبطاء السير إليه.

فأبوابه إلينا كثيرة كما قال تعالى: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف: ١٦، ١٧].

---

(١) رواه البخاري.

(٢) متفق عليه.

Scanned by CamScanner

وفي محاربته لنا لا يهجم علينا دفعة واحدة لعلمه بانه قد يفشل بهذه الطريقة، فيأتينا بالتدريج ... خطوة خطوة.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ [النور: ٢١].

ودائماً ما يخوفنا بالفقر وضيق العيش ليزداد حرصنا على الدنيا قال تعالى: ﴿ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ ﴾ [البقرة: ٢٦٨].

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «إن الشيطان قعد لابن آدم بطريق الإسلام فقال: تُسلم وتذر دينك ودين آبائك؟ فعصاه فأسلم فغفر له.. فقعد له بطريق الهجرة فقال له: تهاجر وتذر دارك وأرضك وسماءك؟ فعصاه فهاجر.. فقعد له بطريق الجهاد فقال: تجاهد وهو جهد النفس والمال فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة، ويقسم المال؟ فعصاه فجاهد فقال رسول الله ﷺ فمن فعل ذلك كان حقاً عليه أن يدخله الله الجنة، وإن غرق كان حقاً على الله أن يدخله الجنة، وإن وقصته دابته كان حقاً على الله أن يدخله الجنة»[1].

* * *

---

(١) رواه البيهقي والنسائي وابن حبان في صحيحه عن سبرة بن الفاكه.

Scanned by CamScanner

الطريق إلى الإخلاص

إن الوصول بالعمل لدرجة الإخلاص أمر شاق وعسير يستلزم من العبد استصحاب الكثير من المعينات التى تعينه وتيسر له السير في طريقه إلى الله.

ولقد بين القرآن الكريم، وبينت السنة المطهرة الكثير من هذه المعينات نذكر منها بعون الله وتوفقيه:

١- الاستعانة بالله عز وجل:

كما تبين سابقاً فإن إخلاص العمل لله أمر شاق جداً على العبد، بل لا يكون مبالغاً من يقول إن الوصول بالعمل لدرجة الإخلاص هو أشق أمر يواجه العبد في حياته على الإطلاق لما يلاقيه من عقبات تحول بينه وبين الإخلاص، والعبد بضعفه الظاهر والباطن لا يقوى على اجتياز العقبات بمفرده.

ولقد علم الله ـ سبحانه وتعالى ـ مدى ضعفنا وعجزنا وعدم قدرتنا على اجتياز تلك العقبات وانهزامنا الدائم أمام مغريات الدنيا وإلحاح النفس، فلم يطلب عز وجل ـ لمن يريد الإخلاص له إلا ان يستعين به، فأى فضل وأى جود أفضل من ذلك.

والاستعانة بالله تتمثل في الانكسار إليه والذل له والاعتراف الدائم بمدى ضعفنا وفقرنا إليه، وأنه ـ جل وعلا ـ لو تركنا لهلكنا ولصرنا عبيداً لأنفسنا وأهوائنا ولاتبعنا الشيطان ولغرقنا في بحر الدنيا، ولم لا وهو ـ سبحانه وتعالى ـ الذي حبب إلينا الإيمان والطاعة وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان.

فمثلي ومثلك « كشاة ملقاة بين الذئاب والسباع، لا يردها عنهم إلا الراعي فلو تخلف عنها طرفة عين لتقاسموها أعضاء »(١).

---

(١) مدراج السالكين.

Scanned by CamScanner

يقول ابن القيم: «فالعبد ملقى بين الله وبين أعدائه من شياطين الإنس والجن فإن حماه منهم وكفهم عنه لم يجدوا إليه سبيلاً وإن تخلى عنه ووكله إلى نفسه طرفة عين ظفروا به»(١).

فالله عز وجل يريد منا التحقق بصفات العبودية له من ذل وانكسار وخضوع واستسلام ليمدنا بصفات الوهيته من تايبد وتوفيق ونصر كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾ [آل عمران: ١٢٣].

فلكي يعطينا الله جل وعلا لا بد ان نفتقر إليه، فكما هو معلوم ان الصدقة إنما تكون للفقراء والمساكين كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾.

[التوبة: ٦٠]

فمن أراد عون الله ومدده الذي لا ينقطع فليتحقق بالفقر إليه وليعش في حقيقة ذلك الفقر مهما أوتي من إسباب الغنى والقوة من مال وبنين وصحة وجاه مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾.

[فاطر: ١٥]

والأمثلة العملية على ذلك كثيرة:

فهذا سيدنا يوسف عليه السلام وقد تحقق بمعاني العبودية لله تراه يناجي ربه ويستعين به لصرف كيد النسوة عنه، فهو يعلم مدى ضعفه البشري، وأنه لو تُرك لنفسه دون عون الله ومدده له فسيصبو إليهن كما قال تعالى على لسان سيدنا يوسف: ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾.

[يوسف: ٣٣]

فكانت الاستجابة سريعة: ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [يوسف: ٣٤].

---

(١) مدراج السالكين.

وفي غزوة بدر كانت الاستغاثة من الرسول ﷺ والصحابة بالله القوي القادر

القاهر من العباد الضعفاء الفقراء الأذلاء فماذا حدث؟.

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩].

ويقول ابن عطاء الله في حكمه الجليلة: تحقق باوصافك يمدك باوصافه، تحقق بذلك يمدك بعزه، وتحقق بعجزك يمدك بقدرته وتحقق بضعفك يمدك بحوله وقوته.

ويقول: إن اردت ورود المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك - إنما الصدقات للفقراء.

٢- الاعتراف الدائم بنعم الله:

فعلى كل منا ان يستشعر منة الله عليه في كل خير يصيبه، فما من خير يرد على العبد إلا بمحض فضل من الله عز وجل.

ولا يظن أحد أنه بعلمه أو بسبقه أو بتضحيته أو بجهاده قد استحق ورود النعم عليه، كيف يكون هذا وعمل العبد نفسه من نعم الله عليه.

فاين كانت الاعمال - التي ندعى أننا بسببها نستحق الإنعام - وقت عناية الله بنا ونحن في الأرحام.

فلننظر إلى حالنا ولنسال انفسنا: من الذي أخرجنا من الظلمات إلى النور؟ ومن الذي أرشدنا إلى طريق الهداية؟ ولماذا نحن دون غيرنا؟.

الا ترى هذا الكم من البشر وهو يسير في طريق الشيطان لماذا لم نكن معهم؟ أبفضل منا أم بموهبة لدينا؟ أم انه محض فضل من الله: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

لينظر كل منا إلي طاعته، فإن كان احدنا ممن يقوم الليل مثلاً، فليسال نفسه من الذي ايقظه من نومه أموهبته وقدراته أم فضل الله ومنته؟ ومن الذي شرح

صدره للقيام وأطلق لسانه بالذكر والدعاء؟.

فنحن غارقون في نعم الله مغمورون بها، ومن أراد شكر هذه النعم فهو في نعمة أخرى، لن يستطيع شكر الله إلا بإعانة من الله كما قال العبد الصالح ﴿قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ﴾ [الاحقاف: ١٥].فله الحمد في الأولى والآخرة، وله الفضل والمنة.

٣ـ البعد عن الأضواء:

الكثير منا عندما تُسلط عليه الأضواء يصير حاله كحال من يقترب من السراج، فكلما اقترب رأى نفسه كبيراً، وحقيقة الأمر أن حجمه لم يتغير وإنما ظله هو الذي كبر.

ولقد خدع هذا الظل الكثير، فرأوا أنفسهم أكبر بكثير مما هم عليه، فنظروا إلى غيرهم على أنهم دونهم وانعكس ذلك الإحساس على تصرفاتهم فأصبح شغلهم الشاغل فعل ما يؤكد تلك الحقيقة، والابتعاد عما يظهرهم بمظهر الجاهل أو المحتاج إلى المعرفة.

فترى أحدهم يظن في نفسه أنه من أهل العلم وضع نفسه في مصافٌ العلماء، مع أنه لم يرهق نفسه في الاطلاع والحفظ والمدارسة، ولم يسلك في يوم من الأيام سبيل طالب العلم، فلقد زج نفسه إلى الأضواء وإلى شمس الشهرة دون إعداد، فإذا ما سُئل عن أمر من الأمور تراه يجيب دون دراية لينفي عن نفسه صفة الجهل فكل همه العمل من أجل رفعة نفسه لا العمل لله.

فمن أراد الإخلاص لله فليبتعد عن الأضواء وليتحاشاها قدر المستطاع وبخاصة في بداية تكوينه فمحاضن التربية لا تحتاج إلى الضوء أو الضوضاء، بل تحتاج إلى الهدوء وعدم الاستعجال إن أردنا منها نتاجا سليما.

فلا ينبغي أن يجرنا ضغط الواقع إلى قطف الثمرة قبل نضجها، فمخاطر ذلك كثيرة، ولكم عانى العاملون للإسلام من وجود نتوءات بينهم نتيجة استعجال

Scanned by CamScanner

البعض في ذلك، فكانت النتيجة تعرض هذا النتاج غير المكتمل النمو للعمل والحركة دون إعداد صحيح فحدث التشوه وظهرت النتوءات.

فما أجمل حكمة ابن عطاء التى يقول فيها: **ادفن وجودك في أرض الخمول، فما نبت مما لم يدفن لا يتم نتاجه.**

فلقد شبه - رحمه الله - بداية العبد بالبذرة التى تحتاج في بداية تكوينها أن تدفن في باطن الأرض بعيداً عن أشعة الشمس، فتأخذ دورتها في باطن الأرض، وتنمو نمواً بطيئاً، فإذا ما أذن لها الله بالظهور، ارتفعت على سطح الأرض بعد فترة حضانة كافية اكتسبت فيها القدرة على الظهور أمام الضوء.

أما إذا تركنا البذرة على سطح الأرض ولم ندفنها في الباطن فلن يكون لها ثمار لتعرضها لمناخ لم تؤهل له بعد.

ليكن كل منا كما قال الشاعر:

وكـن بالجـهـل مستتراً　　　وإن قدموك فكن بالخلف

فليعمل كل منا على أن يستتر بالجهل فلا يفشى عمله وحاله، ولا يظهر شيئاً يدل عليه، بل يبدو أمام الناس بصورة الجاهل المحتاج إلى العلم والمعرفة فهو بهذا سيغلق أمام نفسه أبواباً كثيرة للشيطان وسيستفيد دائما من تعليم الناس له لظنهم فيه الجهل.

وإن قدموك فكن بالخلف:

وليدفع كل منا الإمارة عن نفسه وليبعد عنها وليتهرب منها غاية الإمكان، وليزرع في داخله كرهه لها لمغارمها الكثيرة.

فإن رأى أحدنا في نفسه استشرافا لإمارة - مهما كان حجمها - فليتهم إخلاصه، وليجاهد نفسه على حب الجندية... فما أجمل حياة الظل وما أحلى عيشة الجندية.

وهنا يتبادر إلى الذهن سؤال على درجة كبيرة من الاهمية الا وهو: كيف نطبق هذه التوجيهات والإسلام الآن يحارب محاربة شديدة، والمسلمون يبادون ليل نهار في شتى بقاع الأرض، وواجب الوقت يفرض على المسلم العمل من اجل نصرة دينه والمسارعة إلى تلبية النداء واداء التكليفات...؟!.

وكيف نترك المعركة مشتعلة ونبتعد عنها ونكون من اهل الخمول والبعد عن الأضواء..؟!.

الجواب: بفضل الله وتوفيقه ان المطلوب الآن من المسلم محاربة اعداء الإسلام ليل نهار، ولكن هل يُشارط لمن يعمل للإسلام ان يكون من القادة والمسئولين...؟!

هل لا نصلح لخدمة الدعوة إلا إذا كنا في المقدمة.

فالمقصد مما ذكرناه أن يحب كل منا الجندية، وأن يظهر من بيننا من يعمل للإسلام ويتفانى في خدمته دون أن يملأ الدنيا ضجيجاً بهذه الخدمة.

نريد أن نتدافع المسئولية فيما بيننا وان نكون ممن يعمل للإسلام وهو جندى كما كان يعمل وهو قائد، بل أفضل.

فإذا ما زرع كل منا هذه المعاني في داخله ثم كُلف في يوم من الايام بمسئولية ما ولا مناص له من قبولها، فإنه يقبلها وهو خائف وجل ويكون حاله كحال من يستقبل المصيبة لعلمه بانه قد تجره إلى النار والعياذ بالله، وسيدفعه هذا الخوف إلى الاستعانة الدائمة بالله عليها، وسيفكر كثيراً في كل خطوة يخطوها وسيستشير من حوله، ولن يستبد برأيه، وسيحاسب نفسه على كل صغيرة وكبيرة، ومع ذلك فهو في قرارة نفسه يتمنى أن يبتعد عن تلك المسئولية فبذلك سيكون ـ بمشيئة الله ـ نعم القائد.

اما من ترك لنفسه العنان وسار وراء هواها، واستشرف المسئولية ولهث وراء الحصول عليها فلن يكون همه من هذه المسئولية إلا خدمة حظوظه واهوائه.

Scanned by CamScanner

وسينعكس ذلك على تصرفاته مع من حوله فلن يستشير ولن يستخير، وسيقدم على تصرفات رعناء، وسيتسرع في اتخاذ القرار دون النظر إلى العواقب.

فأي نوع من القادة يريد الإسلام الآن؟!

وأخيراً فحسبنا ما جاء في حديث أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة. إن أعطى رضي وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له وإن شفع لم يشفع»(١).

٤- الاتهام الدائم للنفس:

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٠]. فعلى كل منا أن يتهم إخلاصه دائما، فإن كان الواحد منا قبل القيام بالعمل يتحرى مسببات الإخلاص ويجتهد في تحرير النية لله، ويستعين به - جلّ وعلا - على ذلك، لكنه بعد العمل لا يظن ولو للحظة واحدة أن عمله كان خالصاً لله لعلمه أن طريق الإخلاص مليء بالأشواك والعقبات واللصوص الذين يقطعون الطريق على السائرين.

فهو دائماً في وجل، فإن سئل عن أعماله الخالصة لله في حياته لا يكاد يذكر عملاً واحداً، فكما قالوا: الإخلاص فقد رؤية الإخلاص، فمن شاهد في إخلاصه إخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص.

وخلاصة القول:

إن طريق الإخلاص طريق شاق تقف أمام السائر فيه الدنيا بزخرفها والشيطان

---

(١) رواه البخاري.

Scanned by CamScanner

بوساوسه والنفس بجهلها وظلمها وولوعها باستيفاء حظوظها العاجلة، ولن يتمكن من السير فيه إلا من استعان بالله وتحقق بمعاني العبودية له - جل شأنه - وجاهد نفسه، وخالف هواه، وهو مع ذلك كله على خطر عظيم فكما قيل: إن الناس كلها هلكى إلا العالمون، والعالمون كلهم هلكى إلا العاملون، والعاملون كلهم هلكى إلا المخلصون، والمخلصون على خطر عظيم.

* * *

Scanned by CamScanner

الفصـــل الثانـي

العمـــل

قال عمر بن عبد العزيز لزوجته فاطمة عندما سألته عن سبب بكائه: ويحك يا فاطمة، إني وليت أمر هذه الأمة ففكرت في الفقير الجائع، والمريض الضائع، والعاري المجهود واليتيم المكسور، والمظلوم المقهور، والغريب والأسير، والشيخ الكبير والأرملة الوحيدة، وذي العيال الكثير والرزق القليل وأشباههم في أقطار الأرض فعلمت أن ربي سيسألني عنهم يوم القيامة وأن خصمي دونهم محمد ﷺ فخشيت ألا تثبت لي حجة فلذلك بكيت.

Scanned by CamScanner

الفصل الثاني

العمل

واقع الأمة الإسلامية:

إن الناظر المتفحص لأحوال الأمة الإسلامية يراها أشتاتاً متفرقة.. فقد نجح أعداء الإسلام بعد سنوات طويلة من المؤامرات والمكائد من إسقاط الخلافة الإسلامية والتي كانت رغم ضعفها رمزاً يلتف المسلمون حوله.

ولقد أدرك أعداؤنا أنه لا قبل لهم بالمسلمين طالما واجهوهم تحت راية العقيدة، فعملوا بعد إسقاط الخلافة على تقسيم الدولة الإسلامية إلى دويلات كثيرة، ووضعوا على رأس تلك الدويلات أناساً من بني جلدتنا يتكلمون بألسنتنا ويتسمون بأسمائنا ولكن ولاؤهم لأعدائنا الذين مهدوا لهم الطريق ليتمكنوا من مقدرات أمتنا.

ومع نجاحهم في تفتيت الدولة الإسلامية ووضع من يدين لهم بالولاء والطاعة على رءوس تلك الدويلات، عملوا على زعزعة العقيدة في قلوب المسلمين وتفريغ المعاني الإيمانية الأصيلة من محتوياتها، فشجعوا الطرق الصوفية المنحرفة لتنشر أباطيلها وتهز البناء العقيدي داخل القلوب من الأساس وقد كان. فلقد أصبح الكثير من المسلمين يعتقد في قدرات من يسمونهم بالأولياء وأصحاب الأضرحة، مثل القدرة على شفاء الأمراض واتساع الرزق، ومع تشجيعهم لهذه الطرق المنحرفة فتحوا الأبواب لدعاة الشيوعية والعالمانية والماسونية ليبثوا سمومهم ولينشروا بمنهجهم وليتفقدوا الإسلام ليل نهار.

وكان نتاج ذلك كله: تميع العقيدة في قلوب المسلمين فنشأت أجيال لا تعرف شيئاً عن دينها، عقولها محتلة وقلوبها معبدة لغير الله.

Scanned by CamScanner

وإمعاناً في الإجهاز التام على المسلمين من داخلهم عمل أعداء الإسلام على هدم ما تبقى من قيم صالحة داخل نفوس المسلمين، فنشروا الفساد، واغرقوا الشعوب الإسلامية في بحر الشهوات، ووجهوا اهتمامات المسلمين إلى رموز تافهة مثل المباريات الرياضية، والأفلام، والمسلسلات، وأخبار النجوم والموضة من خلال وسائل الإعلام المسموعة والمرئية التي يسيطرون عليها سيطرة تامة من خلال تلامذتهم فتفسخت الأخلاق وتلاشت المبادئ والقيم، وتهدمت الأمة وأصبحت حطاما.

ولم يكتف أعداؤنا بذلك بل انتقلوا إلى مرحلة العمل على استئصال الإسلام من جذوره فها هي الرقعة الإسلامية تتناقص شيئاً فشيئاً، فبالأمس كانت الأندلس واليوم فلسطين وكشمير وبورما والبوسنة والهرسك و... و...

لقد اجتمعت على أمتنا كل أمم الأرض ليبيدوها، تقودهم في ذلك الصهيونية العالمية التي خططت بمكر ودهاء لهذه الهجمات الشرسة التي تتعرض لها ديار الإسلام، فما من يوم جديد إلا وتنقل لنا وسائل الإعلام أخبار مذابح جديدة للمسلمين، فلقد أصبحنا أضيع من الأيتام علي مائدة اللئام.

وجوب التغيير:

إن هذا الواقع المرير الذي يحياه المسلمون يفرض على كل مسلم فرضاً عينياً أن يعمل على تغييره، وكل مسلم يلقى الله عز وجل وهو لا يعمل على نصرة دينه وتغيير وضع المسلمين المرير فهو آثم، ليتخيل كل منا نفسه وهو بين يدي الله عز وجل يحاسبه ويسأله عما فعله من أجل إعلاء كلمته وتقرير حاكميته وتحرير ديار المسلمين المغتصبة.

هل سيقول له يارب لم أجد وقتًا أعمل فيه من أجلك؟!

أم سيقول له يارب لقد جَبنت وسرى الخوف في أوصالي لأنني أعلم أن العمل من أجلك شاق ومليء بالأشواك؟ أم ماذا سيقول؟.

Scanned by CamScanner

إنني أنذر نفسي وأنذركم بأننا إن لم نتحرك من الآن ونعمل للإسلام فلننتظر وعيد الله: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥].

ووعيد رسول الله ﷺ: **«والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقاباً منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»**[١]. هذا في الدنيا أما في الآخرة فالموقف رهيب والحساب عسير.

والأدلة الشرعية على وجوب التغيير كثيرة نذكر منها:

١- أن الجهاد في سبيل الله فرض عين على كل مسلم اغتصبت أرضه، فإن لم يتمكن من تحريرها وجب على الأقرب فالأقرب، ولا يسقط هذا الفرض إلا بتحرير الديار المغتصبة وهذا بإجماع الفقهاء.

يقول الإمام القرطبي:

إذا تعين الجهاد بغلبة العدو على قطر من الأقطار أو بحلوله بالعقر، فإذا كان ذلك وجب على جميع أهل تلك الدار أن ينفروا ويخرجوا إليه خفافا وثقالا شبابا وشيوخا كل على قدر طاقته من كان له أب بغير إذنه، ولا يتخلف أحد يقدر على الخروج من مقل أو مكثر فإذا عجز أهل تلك البلدة عن القيام بعدوهم كان على من قاربهم وجاورهم أن يخرجوا على حسب ما لزم أهل تلك البلدة حتى يعلموا أن فيهم طاقة على القيام بهم ومدافعتهم، كذلك كل من علم بضعفهم عن عدوهم وعلم انه يدركهم ويمكنه غياثهم لزمه أيضاً الخروج إليهم فالمسلمون كلهم يد على من سواهم حتى إذا قام بدفع العدو أهل الناحية التى نزل العدو عليها واحتل بها سقط الفرض عن الآخرين ولو قارب العدو دار الإسلام ولم يدخلوها لزمهم أيضاً الخروج إليها حتى يظهر دين الله وتحمي البيضة وتحفظ الحوزة ويخزى العدو ولا خلاف في هذا[٢].

---

(١) رواه الترمذي عن حذيفة. وقال: حديث حسن.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: (٥/ ٢٢٩٠، ٢٢٩١).

Scanned by CamScanner

والتي لم يتمكن اهلها من تحريرها على اماكن الديار المغتصبة
وبنظرة موضوعية على اماكن الديار المغتصبة فهذا قريب من فلسطين، وهذا قريب من الأندلس وهذا
نجد أننا جميعاً بجوارها فهذا قريب من فلسطين، وهذا.. وهذا.. وهذا.. اى أننا جميعاً
من كشمير، وهذا من بورما وهذا من طاجكستان، وهذا.. وهذا.. اى أننا جميعاً
قد دخلنا في إطار الجهاد المتعين

٢ - أن الله عز وجل قد وصف هذه الامة بالخيرية لانها تامر بالمعروف وتنهى عن المنكر ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب على المسلم - كلٌّ بحسب استطاعته وأى منكر أكبر من غياب شريعة الله وحكمه في الأرض؟! وأى معروف أكبر من العمل على إعلاء كلمة الله وتحكيم شرعه ورد المسلمين إلى دينهم؟ فإن قال قائل: كيف آمر الناس بالمعروف وأنهاهم عن المنكر وأنا مضطرب مع نفسي ولم أتمكن من إصلاحها فهناك الكثير من أبواب البر لم أطرقها؟! ويستدل صاحب هذا القول بالآية: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

يجيب عن هذا التساؤل الإمام ابن كثير فيقول رحمه الله:

والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يامرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على امرهم بالبر مع تركهم له؟ بل على تركهم له، فإن الامر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والاولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به، ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ [هود: ٨٨].

فكل من الامر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر، على أصح قولى العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي

Scanned by CamScanner

ينهى غيره عنها . وهذا ضعيف والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه، قال سعيد بن جبير: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر[1].

طريق التغيير:

وإذا كان الجهاد قد أصبح فرض عين على كل مسلم لتحرير ديار المسلمين المغتصبة فكيف يتمكن من القيام به؟ إن الواقع المشاهد يبين لنا جميعاً أن المسلم غيور على دينه لا يستطيع أن يقيم فريضة الجهاد لأنه مكبل في داره ووطنه، والأنظمة العلمانية تحصي عليه الأنفاس وتحارب رموز الإسلام فصاحب العقيدة مشتبه في كل مكان فتارة يتهمونه بالرجعية والتخلف، وتارة بالتطرف والإرهاب، ومما يدعو للأسف أنه لا يوجد لأصحاب العقيدة وأهل الإيمان شوكة ومن ثم يصبح الحديث عن تحرير تلك الديار من الأحلام والأماني التي ليس لها رصيد على أرض الواقع.

فالطريق إلى تحرير ديار المسلمين المغتصبة يبدأ بإقامة دولة للإسلام ترفع رايته فيتفيء الجميع تحت لوائها، لذلك فالعمل من أجل إقامة هذه الدولة واجب على كل مسلم لا يسقط عنه حتى تُقام الدولة ويشتد عودها وتصبح قادرة على استرداد مغتصبات المسلمين في كل مكان.

والطريق إلى إقامة دولة الإسلام يبدأ بتكوين جيل مسلم يناصره رأي عام إسلامي.

١- جيل مسلم:

فلا بد من تكوين جيل مسلم يصطفى أفراده ويتم إعدادهم وتكوينهم تكوينا إسلامياً صحيحاً متكاملا فيكون هذا الجيل بمثابة الدعائم أو الركائز للمجتمع

---

[1] مختصر ابن كثير: (١/ ٥٩).

Scanned by CamScanner

الإسلامي المنتظر ولهذا لم يقم المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي في المدينة إلا بعد تكوين الجيل الإسلامي الأول في مكة، وعلى مناكب هؤلاء، ومن انضم إليهم من خيار الأنصار قامت الدولة الإسلامية.

والبداية هي تكوين قاعدة صلبة، يمثل أفرادها الركائز والأعمدة التي تحمل البناء الجديد للأمة، فقد تهدمت أمتنا وأصبحت حطاما وأنقاضا ومن ثم أصبح واجب المسلم تكوين أمة جديدة صالحة لإقامة مجتمع إسلامي قوي.

ولقد كانت هذه هي بداية الرسول ﷺ في طريقه لتكوين دولة الإسلام فبدأ - كما نعلم - بالدعوة في مكة وخلال الثلاثة عشر عاما التي قضاها الرسول في مكة قبل هجرته إلى المدينة لم يكن عدد المستجيبين له يتجاوز المائتين، ولكن كانوا هم النواة والقاعدة الصلبة التي تأسس فوقها المجتمع الإسلامي.

والطريق إلى تكوين هذه القاعدة يبدأ بالفرد، فينتقىٰ الفرد الصالح لهذه المهمة ويتم تكوينه تكوينا إسلاميا متوازنا لتكتمل شخصيته، ويصبح لبنة قوية قادرة على مواجهة العواصف والأنواء.

فلا صلاح للأمة إلا بصلاح الفرد، ولا صلاح للفرد إلا بالتربية والتكوين.

فغاية التربية: إيجاد فرد مسلم عابد لله لا يخشى سواه ولا يتحاكم إلا إليه ولا يتخاصم إلا من أجله، يحرر ولاءه لله ويجرد توحيده له، يعظم شعائر الله ويجتنب نواهيه، غني النفس قنوع لا يفرح إذا ما أقبلت الدنيا عليه ولا يحزن إذا ما ولت عنه، لا ينظر لمن فوقه في الدنيا ولا يسيل لعابه إذا ما رأى المال، يتوكل على الله ويرضى بقضائه ويقدم دائما مصلحة الدين على مصالحه الدنيوية، يجهر بالحق ويرتبط به ويثبت عليه.

قصير الأمل، يحاسب نفسه، سيئ الظن بها، يتحرى الحلال ويبعد عن الشبهات، حسن الخلق، هين لين، يحفظ الحرمات ويؤدي الأمانة ويفي بالوعد صادق لا يكذب، متواضع يرى أنه أقل الناس شأنا، لا يحسد مسلما على خير

أوتيه، يؤاخي في الله، يؤثر إخوانه على نفسه.

يفهم الإسلام فهما صحيحاً فلا يقدم نافلة على فريضة، يتقن عمله وما تخصص فيه، صابر ومحتسب في كل أحواله، يدعو إلى الله ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويبدأ في ذلك بنفسه وأهله وأقربائه.

يتحرى السنة في كل أفعاله ويسارع إلي التوبة والاستغفار.

والطريق إلى تحقيق هذه الغاية لن يتم إلا بالتكوين الدقيق، تكوين العقل وتغذيته بالعلم النافع، وتعبيد القلب لله والعمل على عودة الإشراق إليه بالأوراد، وجهاد النفس وترويضها بدوام محاسبتها.

وتكوين الفرد بهذه الكيفية يحتاج إلي نظام تربوي قوي ينتظم فيه من توافرت لديه الرغبة في تكوين ذاته.

ولقد أدرك الإمام حسن البنا ذلك الأمر فوضع نظام الأسر؛ فالأسرة هي المحضن التربوي الذي يستطيع الفرد من خلاله تكوين ذاته تكوينا متكاملا ومتوازنا.

يقول الإمام حسن البنا رحمه الله: **«إن غاية الإخوان تنحصر في تكوين جيل جديد من المؤمنين بتعاليم الإسلام الصحيح يعمل على صبغ الأمة بالصبغة الإسلامية الكاملة في كل مظاهر حياتها: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨]. وإن وسيلتهم في ذلك تنحصر في تغيير العرف العام وتربية أنصار الدعوة على هذه التعاليم حتي يكونوا قدوة لغيرهم في التمسك بها والحرص عليها والنزول علي حكمها»[١].**

٢- رأي عام إسلامي:

يقول د. يوسف القرضاوي:

لا بد من تكوين رأي عام إسلامي يناصر الفكرة الإسلامية، يحب دعاتها،

---

(١) مجموعة رسائل الإمام الشهيد حسن البنا - رسالة المؤتمر الخامس: (١٦٨).

ويكره أعداءها، ويحرص على انتصارها.

ولا يكفي أبدا أن يتربى جيل مسلم مخلص، لا يحس به الشعب، ولا يعرفه ولا يتحمس له، لأنه في عزلة عنه، يكلمه من بعيد، وينظر إليه من فوق، كان هذا الشعب لا يتكون من ابن عمه وأخيه، ومن جيرانه وذويه، ولفصيلته التي تؤويه، حسبه أن يعيش في خلوته الروحية يعبد ربه، أو في خلوته الفكرية يقرأ كتابه، تاركا الناس يواجهون مشاكلهم وحدهم، مع أن الآخرين من أصحاب العقائد والمذاهب المنحرفة لن يتركوهم، بل سيحاولون أن يكسبوهم إلى جانبهم، مع أن المفروض أن يكونوا مع الإسلام ودعاته.

لا بد من العناية بمشكلات الشعب، وأن ننزل إليه ولا ننتظر صعوده إلينا[1].

وتكوين الجيل المسلم يرتبط ارتباطًا وثيقا بنشر الدعوة وتكوين الرأي العام الإسلامي.

يقول الأستاذ حسن البنا ـ رحمه الله ـ:

وأما التدرج والاعتماد على التربية ووضوح الخطوات في طريق الإخوان المسلمين فذلك أنهم اعتقدوا أن كل دعوة لا بد لها من مراحل ثلاث: مرحلة الدعاية والتعريف والتبشير بالفكرة وإيصالها إلى الجماهير من طبقات الشعب، ثم مرحلة التكوين وتخير الأنصار وإعداد الجنود وتعبئة الصفوف من بين هؤلاء المدعوين، ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج، وكثيرا ما تسري هذه المراحل الثلاث جنبا إلي جنب نظراً لوحدة الدعوة وقوة الارتباط بينها جميعا، فالداعي يدعو، وهو في الوقت نفسه يتخير ويربي، وهو في الوقت عينه يعمل وينفذ كذلك[2].

---

(١) الحل الإسلامي: (١٩٩).

(٢) رسالة المؤتمر الخامس: (١٥٩، ١٦٠).

Scanned by CamScanner

دفع شبهة:

يقول البعض: إن طريق التربية وتكوين القاعدة الصلبة طريق طويل وشاق وقد يستغرق عشرات السنين ولن يتركنا أعداء الإسلام لاستكمال بناء هذه القاعدة فكلما نربي جيل قضوا عليه فلماذا لا نقفز مباشرة إلى القمة ومن خلالها نستطيع أن نكون الأمة من جديد؟!

يجيب على هذا التساؤل د. عبد الرحمن حسن حبنكة فيقول:

إن منهج الرسل الذي أرشدهم الله إليه، هو طريق الدعوة إلى الله وإلى دينه والالتزام به، وبناء الأمة أولا.

فإذا تكونت الأمة الصالحة لإقامة مجتمع إسلامي قوي على دين الله، ولإقامة الحكم الإسلامي على ما يرضى الله، استخلفهم الله، ومكن لهم دينهم الذي ارتضاه لهم.

ولم يكن من منهج أي رسول من رسل الله التحرك العسكري القتالي لإقامة الدولة الإسلامية أولا قبل وجود الأمة المسلمة المستعدة لتطبيق أحكام الله وشريعته لعباده، مع أن الجهاد في سبيل الله بالقتال قد دعت إليه الكتب الربانية الثلاث: التوراة، والإنجيل، والقرآن، فقد قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١١١].

فمع وجود هذا التوجيه للقتال في التوراة والإنجيل، لم يأت توجيه بني إسرائيل بقيادة موسى عليه السلام في مصر لقتال فرعون وجنوده، لأن قدراتهم السببية لم تكن تكفي لذلك، فلما خرجوا من مصر إلى سيناء أمرهم الله بأن يدخلوا الأرض المقدسة مقاتلين فاتحين، لأن قدراتهم السببية كانت بعلم الله تكفي لذلك لكن بني إسرائيل جبنوا عن ذلك.

Scanned by CamScanner

كذلك لم يأت توجيه الذين آمنوا بعيسى عليه السلام لقتال ذوي السلطان في عصره من حكام الدول الرومانية، مع وجود الحث العام في الإنجيل على القتال في سبيل الله، لأن أتباع عيسى يومئذ لم تكن لديهم الوسائل السببية الكافية لقتال حكام الدولة الرومانية.

ومنشأ غلط الذين عكسوا ترتيب المنهج الرباني ناشئ من غلطهم في تصور القضية من أساسها، ومن غلطهم في فهم النصوص، إذ يضعونها في غير مواضعها، ولا يطابقون بينها وبين مراحلها في تدرج البناء.

إنهم حين يعرضون مشكلة إصلاح المجتمع وقدرة السلطة الإدارية على الإصلاح بالأمر وقوة الجند، يحصرون نظرهم في المسافة التي تقع بين قمة الهرم الاجتماعي التي تحتلها السلطة الإدارية والقوى المساندة لها، وقاعدة هذا الهرم، فيقولون: إن إصلاح القاعدة عن طريق قمة الهرم أقرب وأسهل من إصلاح هذه القاعدة عن طريق التغلغل فيها بالدعوة والإقناع والإرشاد والبناء المتدرج، ويحذفون ويمسحون من هذا التصور المسافة الطويلة المعنوية غير المرئية والمليئة بالعقبات والمخاطر الواقعة بينهم وبين الوصول إلى قمة الهرم، وإسقاط المحتلين له، المحميين بقوى لا قبل لهم بها، والتي قد يكون من المتعذر أو المستحيل - بحسب العادة - اجتيازها.

وسبب هذا التصور الفاسد المقرون بالغفلة عن المسافة غير المرئية الفاصلة بينهم وبين قمة الهرم، رغبتهم المتوقدة في تحقيق الأمل المنشود بسرعة، والوصول إلى مركز السلطة العليا دون أن يصعدوا إلى السلم الطبيعي المتدرج لها، ودون أن يلتزموا بالسرعة البطيئة الحكيمة التي تُلزِمُ بها أحكام الله التشريعية، وتجري بمقتضاها سنن الله التكوينية، والتي يتقيد بموجبها أمر الله التكويني نفسه، مع أن الله عز وجل إذا أراد شيئا فإنما يقول له: كن فيكون.

فلننظر كيف يخلق الله الأجنة في بطون أمهاتها؟ وكيف يخلق الزرع وكيف ينبت الشجر؟

Scanned by CamScanner

هل نام قوم عشية فاصبحوا في صباحها فوجدوا صحرائهم الرملية القاحلة بساتين وجنات بخلق الله، وبامره التكويني؟ ام يجعل الله ذلك ضمن سننه في البناء التربوي المتدرج، خلال مدة زمنية مرسومة في اصل خطة التكوين.

إن الوظيفة الدائمة للأمة الإسلامية أنها أمة دعوة، فعليها أن تقوم بوظيفتها هذه دوما دون انقطاع.

فإذا استكملت في علم الله بناء القاعدة الصالحة للاستخلاف الحكمي في الأرض استخلفها الله، ومكن لها دينها الذي ارتضاه للناس.

أما إذا سعت لتضع نفسها موضع هذا الاستخلاف دون ان تكون قاعدتها مؤهلة لذلك، ودون ان تستكمل ما يلزم لحماية هذا الاستخلاف، فإن الله عز وجل يخيب مساعيها، ولا يمكن لها في الارض.

وكلما رأينا فشل الساعين فلا بد أن نعلم أن الشروط النفسية او المادية لم تستكمل بعد، ولا بد ان نعلم ايضاً أن حكمة الله غير متهمة، وان وعد الله لا يخلف، ولكن الناس هم الذين يسيئون الفهم، ويطالبون الله عز وجل بتحقيق وعد لم يحققوا هم في انفسهم شروطه و لا واجباته.

فإن قلت: إن أعداء الإسلام والمسلمين لا يتركون قتالنا وإكراهنا علي الكفر او الفسوق والعصيان ولو تركناهم.

فهذه حجة واهية فكل المؤمنين المستضعفين في التاريخ الإنساني قد تعرضوا لالوان من الاضطهاد من اجل دينهم، ولم يكن المخرج ان يقاتلوا أعداءهم الاقوياء على ضعف قواتهم ليتمكن الأعداء من إبادتهم، متخذاً ثوراتهم المسلحة ذريعة لإبادتهم وتشتيتهم وتمزيقهم كل ممزق، ومعهم جمهور كبير من ضعفاء المسلمين.

بل كان المخرج لهم وسائل أخرى غير المواجهة الحربية المسلحة باسلحة القتل والتدمير، وانجح هذه الوسائل صبرهم علي عدوهم في كل ضغوطه السياسية والعسكرية والاقتصادية، والداب غير المتوقف في تجميع الناس على دين الله،

والإقناع الحكيمة.. آ. هـ[1].

ويؤكد الأستاذ أبو الأعلى المودودي على أن الطريق لإقامة الدولة الإسلامية يبدأ من القاعدة فيقول:

إن الدولة الإسلامية لا تظهر بطريقة خارقة للعادة، بل لا بد لإيجادها وتحقيقها من أن تظهر أولا حركة شاملة مبنية على نظرية الحياة الإسلامية وفكرتها، وعلى قواعد وقيم خلقية وعملية توافق روح الإسلام وتلائم طبيعته، يقوم بأمرها رجال يظهرون استعدادهم التام للاصطباغ بهذه الصبغة المخصوصة من الإنسانية، ويسعون لنشر العقلية الإسلامية ويبذلون جهودهم في بث روح الإسلام الخلقية في المجتمع.

ثم يقوم على هذا الأساس نظام للتعليم والثقافة يهيئ رجالا مطبوعين بطابع الإسلام الخاص، ويتحرج بفضله المؤرخون المسلمون والفلاسفة المسلمون، والمسلمون الحاذقون في العلوم الطبيعية والاقتصادية والمالية، والذين لهم حظ وافر في القانون والسياسة وفي كل فرع من العلوم والفنون، من الذين امتزجت الفكرة الإسلامية بلحومهم ودمائهم، والذين تثقفت أذهانهم واتسعت مداركهم اتساعا يؤهلهم لتدوين نظام للأفكار والنظريات ومنهاج كامل للحياة العملية مبني على مبادئ الإسلام وقواعده، والذين آتاهم الله من الموهبة والمقدرة ما يمكنهم أن يقارعوا به أئمة الكفر ممن لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ويجاذبوهم بحبل يبسطوا سلطان سموهم الفكري علي عقولهم وأذهانهم ويرغموهم على الاستسلام لزعامتهم الفكرية والعقلية، ثم تاخذ هذه الحركة تنمو صعدا، مع ما لها من السيادة الفكرية والعقلية، مكافحة ومقاومة للنظام الباطل المعوج السائد في المجتمع الإنساني، لانه في مثل هذا الكفاح والمقاومة يمتحن القائمون بالدعوة وحاملوا لوائها بأنواع من المصائب والشدائد، فيقاسون الآلام والاهوال ضربًا وقتلا وإجلاء،

---

(١) بصائر للمسلم المعاصر لعبد الرحمن حنبكة: (١٦٥- ١٧٤) بتصرف يسير.

Scanned by CamScanner

عن الوطن، ويبذلون مهجهم وأرواحهم بكل صبر وجلد وإخلاص وعزم قوي، ويبتلون بالشدائد، ويفتنون، فيخرجون منا كالتبر المسبوك.

وإنهم خلال هذا الكفاح، وطوال مدة هذا النضال والصراع يمثلون - بكل ما يقولون وكل ما يعملون - النظرية التي قاموا بالدعوة إليها، ويظهر من كل ما يصدر عنهم من قول أو عمل أن الدولة الفكرية التي يدعو إليها أمثال هؤلاء الرجال الذين قد استولوا على الأمر في الصدق والعفاف وصفاء السريرة والإخلاص في العمل والاستمساك بالمبادئ والتجرد عن الأغراض والشهوات لا بد أن يكون فيها سعادة للبشر وسلام ودعة للإنسانية المعذبة، فهناك تنجذب إلى هذه الدعوة أفئدة الذين يوجد فيهم شيء من الخير والصلاح. أما أصحاب الطباع الفاسدة والذين في قلوبهم مرض ممن يتبعون الأهواء والشهوات فسوف تختفى أصواتهم ويضمحل نفوذهم شيئاً فشيئاً بإزاء تيار الحركة الجارف وسيرها الحثيث، وهكذا يحدث انقلاب عظيم في أفكار العامة وتتعطش الحياة الاجتماعية إلى هذا النظام المخصوص من الحكم وهناك لا يستطيع أن يحيا في هذا المجتمع الثائر نظام آخر غير النظام الذي أعدت له المعدات، وتهيأت له العوامل[1].

لا بديل لوجود القاعدة:

لقد أصبح حجم الانحراف الذي وقعت فيه الأمة الإسلامية أضخم بكثير مما قد يتصوره البعض، فالفساد لم يعد يقتصر على السلوك فقط بل امتد إلى التصور أيضاً.

هذه الأمة المحطمة لا تستطيع أن تناصر الحكم الإسلامى حين يقوم، وكما نعلم أن أى حكم لا بد له لكى يستمر من سند يسنده وقوة تناصره، وبداهة فإن القوى المعادية للإسلام ستقف موقف المضاد من الحكم الإسلامى لذلك فإن هذا الحكم لن تقوم له قائمة إلا إذا كان له سند من أهله.. من المسلمين المؤمنين المجاهدين، لا بد

(١) منهاج الانقلاب الإسلامي لأبي الأعلى المودودي: (١٧- ١٩).

من وجود القاعدة الإسلامية. وليس معنى هذا اننا لا بد ان ننتظر حتى تتحول الأمة كلها إلى مؤمنين مجاهدين لكى يقوم الحكم الإسلامى لقد كان مجتمع الرسول ﷺ فيه من المنافقين وضعاف الإيمان، ولكن القاعدة الإسلامية كانت فيه من القوة والرسوخ والتمكن بحيث حملت أولئك كلهم.

والمطلوب اليوم لكي يقوم الحكم الإسلامي أن توجد القاعدة الإسلامية والجيل المسلم بالحجم المعقول.

فطريق تكوين هذه القاعدة طويل والتقدم فيه بطيء ولكن لا طريق غيره، اما الإجابة عن تساؤل السائلين: متى نصر الله؟ فهى ان نصر الله سياتي في اليوم الذى تتسع فيه القاعدة وتنضج وتمتد جذورها في كل مكان ويلتف الناس حولها، عند ذلك سيجد العدو نفسه امام تيار جارف ، وأمام أمة قد اجتمعت على إرادة موحدة ومن هنا نقول ان الصدام مع السلطة قبل وجود القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة عمليات انتحارية لا طائل وراءها، إلا اعطاء الطغاة حجة لتقتيل المسلمين وتذبيحهم.

وخلاصه القول كما يقول احد الدعاة. انه لا بد من ارتياد الطريق الطويل المجهد الشاق.. البطيء الثمرة... المستنفذ للطاقة طريق التربية لإنشاء القاعدة المسلمة الواعية المجاهدة، التى تسند الحكم الإسلامى حين يقوم، وتظل تسنده لكى يستمر في الوجود بعد ان يقوم.

المسئولية كبيرة:

وبعد أن تأكد لدينا انه لا طريق لإصلاح الأمة إلا طريق التربية، اصبحت المسئولية الملقاة على عاتقنا كبيرة فبأيدينا ان نختصر الزمن المطلوب لتكوين القاعدة المسلمة إذا ما استشعر كل منا مسئوليته واقبل بعزم وجد على هذه الدعوة ولم يتراخ في حملها واخذها بقوة كما قال تعالى: ﴿ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ٦٣].

يقول الأستاذ البهي الخولي: الداعية يجب أن يشعر بأن دعوته حية في أعصابه متوهجة في ضميره، تصيح في دمائه، فتعجله عن الراحة والدعة إلى الحركة والعمل، وتشغله عن نفسه وولده وماله.. هذا هو الداعية الصادق الذي تحس إيمانه بدعوته في النظرة والحركة والإشارة، وفي السمة التي تخلع بهاء الوجه، ويتذكر دعوته في نومه ويقظته وعلى طعامه وبين أهله، وفي حله وسفره وفي مجالسه... بالجملة تكون دعوته هي المسألة الأولى الحاضرة لديه في كل وقت من أوقات حياته... هي صلب الحياة ولبها وصميمها وأمور عيشه على هامشها وأطرافها[1].

ولقد كان هذا هو شعور الرعيل الأول من المسلمين كان إسلامهم هو شغلهم الشاغل في كل الظروف وكل الأحوال كان محور حياتهم وتفكيرهم ساعة العسر وساعة اليسر، يقول زيد بن ثابت رضي الله عنه: بعثني رسول الله ﷺ يوم أحد أطلب سعد بن الربيع فقال لي: «إن رأيته فاقرئه مني السلام، وقل له: يقول لك رسول الله ﷺ كيف تجدك»؟

قال: فجعلت أطوف بين القتلى؟ فأتيته وهو في آخر رمق وفيه سبعون ضربة ما بين طعنة رمح وضربة سيف ورمية سهم.. فقلت: يا سعد إن رسول الله ﷺ يقرأ عليك السلام ويقول لك: أخبرني كيف تجدك؟ فقال: سعد: على رسول الله ﷺ السلام قل له: يا رسول الله أجد ريح الجنة؟ وقل لقومي الأنصار: لا عذر لكم عند الله إن خلص إلى رسول الله وفيكم عين تطرف وفاضت نفسه من وقته.

* * *

(1) تذكرة الدعاة.

الفصل الثالث

الثقة

قال رسول الله ﷺ:

«ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزا يعز الله به الإسلام وذلا يذل به الكفر».

رواه ابن حبان في صحيحه

Scanned by CamScanner

إن ركن الثقة لمن الركائز القوية التي تقوم عليها الدعوة، فللثقة مفهوم واسع وعميق في الإسلام، ولها أبعاد كثيرة، وتتناول مجالات شتى تبدأ بالثقة بالخالق جل وعلا وتنتهي بالثقة بالنفس وبينهما ألوان شتى.

الثقة بالله:

إن الأخ المسلم يوقن بأن الله لن يتركه ولن يضيعه إذا ما تخلى عنه الجميع ثقته ويقينه بما عند الله أكبر من ثقته بما في يده، لذلك تراه دائما هادئ البال، ساكن النفس، إذا ما ادلهمت عليه الخطوب وازدادت الغيوم فهو يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن الأمة لو اجتمعت على أن تضره بشيء لن تضره إلا بشيء قد كتبه الله عليه، فربه هو مالك الملك ورب الأرباب بيده ملكوت كل شيء يعز من يشاء ويذل من يشاء وهو على كل شيء قدير.

ألا ترى حال أم موسى ويقينها بربها وثقتها به عندما استجابت لوحيه وألقت بولدها في اليم:

يقول تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾.

[القصص: ٧]

ففعلُ أم موسى - كما يقول ابن القيم - عندما ألقت سيدنا موسى في اليم هو عين الثقة بالله تعالى إذ لولا كمال ثقتها بربها لما ألقت بولدها وفلذة كبدها في تيار الماء تتلاعب به أمواجه وجريانه إلى حيث ينتهي أو يقف[١].

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٣٤٧).

Scanned by CamScanner

وعندما فر سيدنا موسى بمن معه من فرعون وجنوده أتبعهم فرعون ومن...
فاصبح البحر امام موسى وبني إسرائيل، وفرعون وجنوده خلفه عند هذا: ﴿ ...
أصحاب موسى إنا لمدركون ﴾ [الشعراء: ٦١]. ولكن موسى الذي تلقى الو...
من ربه لا يشك لحظة، فقد ملأ قلبه الثقة بربه، واليقين بعونه والتأكد من النجا...
كان لا يدري كيف تكون، فهي لا بد كائنة والله هو الذي يوجهه ويرعاه(١)
﴿قال كلا إن معي ربي سيهدين﴾ [الشعراء: ٦٢].

ولقد رأينا في سيرة نبينا ﷺ كيف كان يقينه التام بربه وثقته الكاملة به وكيف ربى ﷺ صحابته على ذلك.

ففي حادث الهجرة وحينما اقترب المشركون من غار ثور - حيث الرسول ﷺ وابو بكر الصديق - وازداد اقترابهم حتى وقفوا امامه، يقول أبو بكر الصديق: «نظرت إلي أقدام المشركين ونحن في الغار وهم على رءوسنا فقلت: يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا، فقال ﷺ: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما»(٢).

ونزل القرآن: ﴿ إلاَّ تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم ﴾ [التوبة: ٤٠].

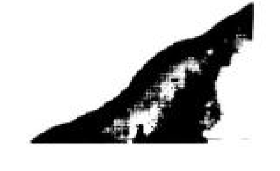
وفي غزوة الاحزاب نرى صورة المؤمن الواثق بربه في مواجهة الهول، وعند اشتداد الخطر، فتتخذ القلوب المؤمنة من هذه الاهوال مادة الطمانينة والثقة(٣):

---

(١) في ظلال القرآن: (٥/ ٢٥٩٩).

(٢) متفق عليه.

(٣) مفاهيم تربوية لمحمد عبد الله الخطيب.



﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أي هذا ما وعدنا الله ورسوله من الابتلاء والاختبار والامتحان الذي يعقبه النصر القريب(١).

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس: «حسبنا الله ونعم الوكيل» قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قال لهم الناس.

﴿الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣].

الثقة بنصر الله:

على المسلم أن يوقن بأن الله سينصره وسيعز دينه مهما طال الأمد ومهما قويت شوكة الباطل: ﴿ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون﴾ [الأنبياء: ١٠٥]. ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ [الحج: ٤٠]. ﴿كتب الله لأغلبن أنا ورسلي﴾ [المجادلة: ٢١] ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ [غافر: ٥١]. ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا﴾ [النور: ٥٥].

فالثقة بنصر الله تملأ القلب طمأنينة ورضا وصبراً جميلاً، فهذا رسول الله ﷺ يقول لخباب بن الأرت عندما طلب منه أن يدعو الله لهم أن يخفف عنهم الأذى: «قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له حفرة في الأرض فيجعل فيها فيجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه

---

(١) مختصر تفسير ابن كثير: (٣/ ٨٨).

Scanned by CamScanner

وعظمه، فما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله عز وجل والذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»(١).

فلا يحزننا تقلب الذين كفروا في البلاد فإنهم مهما علوا وتجبروا لن يصلوا إلى ما وصل إليه فرعون وجنوده من طغيان والذي قال عنه الله عز وجل وهو يخاطب سيدنا موسى: ﴿اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ﴾ [النازعات: ١٧]. ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ﴾ [القصص: ٤]. فماذا كانت نتيجة هذ الطغيان؟ ﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ [الذاريات: ٤٠].

بل إن الله عز وجل يمن على بني إسرائيل بالتمكين في بداية سورة القصص عند ميلاد سيدنا موسى اي قبل التمكين بعشرات السنين: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾.

[القصص: ٥]

فعلى العاملين للإسلام ان يكونوا مؤمنين بهذا الحق، معتزين بانتسابهم إليه بل ويوقنون ان الله معهم بعينهم ويرشدهم وينصرهم ويؤيدهم ويمدهم إذا تخلى عنهم الناس، ويدافع عنهم إذا أعوزهم النصير وهو معهم اينما كانوا، وإذا لم ينهض معهم جند الارض ينزل عليهم المدد من جند السماء:(٢) ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ [الانفال: ١٢]. فصاحب العقيدة اوثق ما يكون بوعد الله يملأ قلبه الاطمئنان والسكينة، فهو واسع الامل، كبير الرجاء، عظيم الثقة في الله تعالى.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) مجموعة الرسائل.

Scanned by CamScanner

الثقة بثواب الله:

وعلى المسلم ان يوقن ان أي خطوة يخطوها - في سبيل الله خالصة له - وأي حركة يتحركها وأي تعب يصيبه فسيكتب له الله به جزيل المثوبة مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

[التوبة: ١٢٠، ١٢١]

فلو عطش أو جاع أو تعب الأخ المسلم وهو في الطريق فما عليه إلا ان يتذكر وعد الله له بالجزاء الأوفى مهما كان حجم هذا التعب. إن يقين المسلم بذلك سيدفعه - بلا شك - إلى استعذاب الألم والشوق إلى العمل وكراهية الراحة والسكون: ﴿إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤].

الثقة بالمنهج:

لا يمكن للمسلم ان يعمل، ويتحرك، ويخالف هواه من غير قناعة بانه يحمل منهجاً هو الحق كله، الحق الذي قامت عليه السموات والأرض. قال تعالي: ﴿فَلَا تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧].
وقال جل شانه: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩].

إن اقتناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم، الذي لا ارجحة فيه ولا تردد بان دينه هو الدين الوحيد الذي يتقبله الله من الناس بعد رسالة محمد ﷺ وبان منهجه الذي كلفه الله ان يقيم الحياة عليه، منهج متفرد، لا نظير له بين سائر المناهج، ولا يمكن الاستغناء عنه بمنهج آخر، ولا يمكن ان يقوم مقامه منهج آخر ولا تصلح الحياة البشرية ولا تستقيم إلا ان تقوم على هذا المنهج وحده دون سواه.

Scanned by CamScanner

إن اقناع المسلم إلى درجة اليقين الجازم بهذا كله هو - وحده - الذي يدفعه للاضطلاع بعبء النهوض لتحقيق منهج الله الذي رضيه للناس، في وجه العقبات الشاقة، والتكاليف المضنية، والمقاومة العنيدة، والكيد الناصب والألم الذي يكاد يجاوز الطاقة في كثير من الأحيان(١).

الثقة بالقائد:

وعلى الأخ المسلم أن يثق بقيادته ثقة كبيرة وغير متناهية ولا حدود لها. ولنا في سيرة رسول الله ﷺ أمثلة كثيرة تبين مدى فهم الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الأمر. فهذا أبو بكر - رضي الله عنه - في حادث الإسراء والمعراج كما تحكي لنا السيرة: «وذهب الناس إلى أبي بكر فقالوا له: هل لك يا أبا بكر في صاحبك يزعم أنه قد جاء هذه الليلة بيت المقدس وصلى فيه ورجع إلى مكة فقال لهم أبو بكر إنكم تكذبون عليه، فقالوا: بلى ها هو ذاك في المسجد يحدث الناس فقال أبو بكر: والله لئن كان قاله لقد صدق»(٢).

وتجلت الثقة بالقيادة واضحة في حادث الإفك: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ [النور: ١٢]. يقول ابن إسحاق: إن أبا أيوب «الأنصاري» قالت له امرأته أم أيوب: يا أبا أيوب أتسمع ما يقول الناس عن عائشة رضي الله عنها؟ قال: بلى وذلك الكذب، أكنت يا أم أيوب فاعلة؟ قالت لا والله ما كنت لأفعله. قال: عائشة والله خير منك(٣).

وفي الحديبية كان عمر بن الخطاب معارضاً للاتفاقية وذهب إلى رسول الله ﷺ وقال له: يا رسول الله، ألست برسول الله؟ قال: بلى! قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى قال: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟

---

(١) في ظلال القرآن: (٢ / ٩١٢).

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام: ٨٤.

(٣) المصدر السابق: ٢٠٥.

Scanned by CamScanner

رد النبي ﷺ فقال له: أنا عبد الله ورسوله لن أخالف أمره، ولن يضيعني. فذهب الفاروق إلى أبي بكر، فقال: يا أبا بكر: أليس برسول الله؟ قال: بلى، قال: أولسنا بالمسلمين؟ قال: بلى، قال: أوليسوا بالمشركين؟ قال: بلى، قل: فعلام نعطي الدنية في ديننا؟ فقال أبو بكر: الزم غرزه، فإني أشهد أنه رسول الله وأن الحق ما أمر به، ولن نخالف أمر الله ولن يضيعه الله(١).

ولكي ترسخ هذه الثقة في القلب وتصبح واقعًا عمليًا في حياة الأخ المسلم عليه أن يتعرف على قائده عن قرب، ويدرس ظروف حياته وأن يطمئن لكفايته وإخلاصه وأن يحاول دائماً الاقتراب الدائم منه، فإن تم ذلك فسيسهل عليه أن يسمع ويطيع لهذا القائد دون تردد ولا مراجعة ولا شك ولا حرج، مع إبداء النصحية والتنبيه إلى الصواب، بل سيفرض في نفسه الخطأ وفي القيادة الصواب إذا تعارض ما أمر به مع ما تعلم في المسائل الاجتهادية التي لم يرد فيها نص شرعي(٢).

الثقة بالجنود:

ومع ثقة المسلم بالله وبنصره وثوابه وثقته بالمنهج وثقته بقيادته عليه أن يثق بمن يسير معه في الطريق فلا ينتقص من أحد بل ويوقن أن أياً ممن يسير معه مهما كان حجمه فهو أفضل عشرات المرات ممن توقف عن السير أو ممن لم يفكر في السير ابتداءً. يقول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٩٥].

ولقد تربى أصحاب رسول الله ﷺ على ذلك:

---

(١) صلح الحديبية لمحمد أحمد باشميل: ٢٥٥، ٢٥٦.

(٢) مجموعة الرسائل: ٢٧٦، ٢٧٧.

فهذا خالد بن الوليد يقول لأحد قادة الروم: جئتك برجال يحرصون على الموت حرصكم على الحياة، وطلب خالد بن الوليد من أبي بكر مددًا فأمده بـ إليه القعقاع بن عمرو فاستغرب من ذلك فقال له: **لا يهزم جيش فيه القعقاع**

وطلب عمرو بن العاص مددًا لفتح مصر من أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فأرسل إليه أربعة الآف مجاهد من قوات المسلمين بالشام وعلى رأسهم الزبير بن العوام، والمقداد بن عمرو، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد، كما بعث إليه بكتاب يقول فيه: وإني قد أمددتك بأربعة الآف رجل، على كل ألف رجل منهم مقام الألف واعلم أن معك اثني عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفاً من قلة(1).

وفي حادث الإفك تقول أم أيوب لأبي أيوب الأنصاري: لو كنت بدل صفوان أكنت تظن بحرمة رسول الله ﷺ سوءًا قال: لا، قالت: ولو كنت أنا بدل عائشة ـ رضي الله عنها ـ ما خنت رسول الله ﷺ فعائشة خير مني وصفوان خير منك. هكذا ينبغي للأخ المسلم أن يثق بمن يسير معه في الطريق وهذه الثقة لا تتنافى مع كونهم بشر يخطئون ويصيبون ويختلفون في قوة وضعف عزائمهم.

فقد نرى من أحدهم تقصيرًا أو تركًا لأفضل وفعل مفضول فلا ينبغي أن نُسقط اعتباره بسبب هذا بل ننصح ونذكّر فإن أبى إلا أن يترخص فقد اختار لنفسه طريق الرخصة فكما قال الإمام الغزالي: فإن شئت فزد في الاحتياط وإن شئت فترخص لنفسك تحتاط وعليها تترخص.

وليس معنى ترخص البعض في بعض أموره أن يسقط اعتباره فهذا أمر غير مقبول فهل يستوي رجل وضع روحه على كفه في هذا الطريق مع بعض التقصير الشخصي منه مع آخر احتاط لنفسه وأخذ بالعزائم في بعض المسائل التي تخص الفرد المسلم ولكنه قعد عن السير في هذا الطريق لخوف أو لعدم وضوح الرؤية؟ لا يستوون.

---

(1) حصن بابليون: ٢٢.

وفي قصة حاطب بن أبي بلتعة أبلغ مثل لذلك فقد ارسل إلى اهل مكة برسالة يخبرهم فيها ان رسول الله ﷺ قد تجهز لغزوهم - وهو أمر يشبه الخيانة العظمى - فأراد عمر بن الخطاب ان يضرب عنقه فقال له رسول الله ﷺ: «إنه شهد بدراً وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم».

الثقة بالنفس:

يقول الله عز وجل: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩]. فعلى الجندي ان يثق بنفسه وأن يعلم انه يسيره في طريق الله وحمله منهجه فقد اختار لنفسه طريق المجاهدين.

وثقة الجندي بنفسه نابعة من شرف انتسابه إلى هذا المنهج وشرف سيره في الطريق، فإن ترك المنهج والطريق فلا قيمة له «نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فمن ابتغى العزة في غيره أذله الله».

إن المؤمن هو الأعلى.. الأعلى سنداً ومصدراً.. فما تكون الأرض كلها؟ وما يكون الناس؟ وما تكون القيم السائدة في الأرض؟ والاعتبارات الشائعة عند الناس؟ وهو من الله يتلقى وإلى الله يرجع وعلى منهجه يسير؟ وهو الأعلى إدراكاً وتصوراً لحقيقة الوجود، فالإيمان بالله الواحد في هذه الصورة التي جاء بها الإسلام هو اكمل صورة للمعرفة بالحقيقة الكبرى. وهو الأعلى تصوراً للقيم والموازين التي توزن بها الحياة والأحداث والأشياء والأشخاص وهو الأعلى ضميراً وشعوراً؟ وخلقاً وسلوكاً.. وهو الأعلى شريعة ونظاماً، وهكذا كان المسلمون الأوائل يقفون امام المظاهر الجوفاء والاعتبارات التي كانت تتعبد الناس في الجاهلية.

هكذا وقف المغيرة بن شعبة امام صور الجاهلية وأوضاعها وقيمها وتصوراتها في معسكر رستم قائد الفرس المشهور «عن ابي عثمان النهدي قال: لما جاء المغيرة إلى القنطرة فعبرها إلى اهل فارس أجلسوه واستاذنوا رستم في إجازته ولم يغيروا

Scanned by CamScanner

شيئًا من شارتهم تقوية لتهاونهم فاقبل المغيرة بن شعبة والقوم في زيهم عليهم التيجان والثياب المنسوجة بالذهب وبسطهم على غلوة ـ والغلوة مسافة رمية سهم وتقدر بثلاثمائة او اربعمائة خطوة ـ لا يصل إلى صاحبهم حتى يمشي عليها غلوة واقبل المغيرة وله اربع ضفائر يمشي حتى جلس على سريره ووسادته فوثبوا عليه فترتروه وأنزلوه ومغثوه[١]. فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى قوماً أسفه منكم.. إنا معشر العرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذي صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم ولكن دعوتموني، اليوم علمت أن أمركم مضمحل، وأنكم مغلوبون وأن ملكًا لا يقوم على هذه السيرة، ولا على هذه العقول»[٢].

اعتراف بفضل الله.. لا غرور

وثقة المسلم بنفسه لا تعني غروره وإحساسه بانه ذو فضل على الناس وأن مكانتهم دونه بما يمتاز عليهم من مواهب وإمكانات، بل يعني اعترافه بما أكرمه الله وأنعم عليه باعظم نعمة في الوجود الا وهي الإسلام فهو لا يشك لحظة في هذه النعمة ويوقن بان أي مقارنة تعقد بينه وبين أي شخص آخر لا ينتسب لهذا الدين فهي في صالحه لا محالة، فنحن في عزة ما دمنا في كنف هذا الدين.. هذه العزة هي الصبغة التي تصبغ تعامل المسلم مع غيره، أما الصبغة التي تصبغ تعامل المسلم مع نفسه فهي صبغة الاتهام الدائم والشعور بالتقصير فهو يرى أنه أقل الناس شانا فاي خير يصيبه فمن الله وأي شر يلحق به فمن نفسه.

---

(١) ترتروه: أكثروا الكلام معه. مغثوه: صرعوه.

(٢) معالم في الطريق. سيد قطب.

الفصل الرابع

الطاعة

قال تعالى:

﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما (٦٨) ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾.

[النساء: ٦٦ - ٧٠]

Scanned by CamScanner

الطاعـة

يقول الله تعالى: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا وأولئك هم المفلحون﴾ [النور: ٥١].

ويقول تعالى: ﴿فأولى لهم (٢٠) طاعة وقول معروف﴾ [محمد: ٢٠، ٢١].

أهميتها:

إن السمع والطاعة والوقوف عند حد الأوامر والنواهي لمن أهم ركائز الدعوة في الإسلام بل ومن أوجب واجباتها.

فبدون الانضباط والطاعة لا تسير الجماعة - أيّ جماعة - على نظام، ولا يقوم لها في الأمة كيان، ولا تصل في الحياة إلى غاية.

من أجل هذا أوجب الإسلام الطاعة للأمير، وألزم المسلمين بها.

يقول رسول الله ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصاني فقد عصى الله ومن عصى أميري فقد عصاني»[١].

فالله تبارك وتعالى أمر بطاعة رسول الله ﷺ، والرسول عليه الصلاة والسلام أمر بطاعة الأمير فتلازمت الطاعة[٢] وتلازمت المعصية.

وجوبها:

لا بد لكل جماعة من رئيس، تلك حقيقة قررتها الشريعة وأمرت بها ويؤيدها الواقع ويدركها العقل السليم[٣].

(١) رواه مسلم.

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢/ ٢٢٤.

(٣) أصول الدعوة: ٤٦٤.

ولهذا جاء في الحديث: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم»(١).

وفي حديث آخر: «لا يحل لثلاثة نفر يكونون بأرض فلاة إلا أمروا أحدهم»(٢).

فإذا كان الشرع قد أوجب في أقل الجماعات أن يولي أحدهم، كان هذا تنبيها على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك.

يقول الإمام ابن تيمية: يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها فإن بني آدم لا تتم مصلحتهم إلا بالاجتماع، لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بد لهم عند الاجتماع من رأس.

ويذكر الحديثين السابقين ثم يعلق عليهما فيقول:

فأوجب الرسول ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيها بذلك على سائر أنواع الاجتماع ولأن الله أوجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولا يتم ذلك إلا بقوة وإمارة(٣) فاتخاذ الأمير شرط أساسي لكل عمل، كبر هذا العمل أو صغر، ذلك لكي يكون هذا الأمير هو الموجه لسير هذه المجموعة التي تجتمع على كلمته، فهذه سنة الله في الحياة، أن يسير الذي له موجه واحد السير الصحيح المطلوب، بينما يخبط الذي لا يكون له ذلك الموجه الواحد(٤).

يقول تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَماً لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي

---

(١) أخرجه أبو داود: (٢٦٠٨) وحسنه الألباني: (٢٩١١).

(٢) أخرجه أحمد في مسند: (٢/ ١٧٦).

(٣) السياسة الشرعية: ١٨٤، ١٨٥.

(٤) ثمرات التربية الإسلامية: ٤١.

الأمر منكم ﴾ [النساء: ٥٩].

يقول الإمام بن تيمية في معرض كلامه عن أولي الأمر:

وأولوا الأمر: أصحاب الأمر وذووه، وهم الذين يأمرون الناس وذلك يشترك به أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء والأمراء فإذا صلحوا صلح الناس وإذا فسدوا فسد الناس» ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وكل من كان متبوعًا فإنه من أولى الأمر، وعلى كل واحد من هؤلاء ان يامر بما أمر الله تعالي به وينهى عما نهى عنه، وعلى كل واحد ممن عليه طاعته ان يطيعه في طاعة الله ولا يطيعه في معصية الله.

لمن تكون الطاعة:

تجب الطاعة لكل من ولى أمرًا من أمور المسلمين صغيرًا كان أو كبيرًا، ولم يشترط الإسلام شكلاً أو نسبًا أو سنًا معينًا لمن تجب طاعته.

فعن أبي ذر قال: «إن خليلي أوصاني أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً مجدّع الأطراف»[١].

اي أسمع وأطيع وإن كان دنيء النسب، حتى ولو كان عبدًا اسود مقطوع الأطراف فطاعته واجبة[٢].

ويقول ﷺ: «اسمعوا وأطيعوا وإن استُعمل عليكم عبد حبشي كأن رأسه زبيبة»[٣].

بل قد يكون الأمير أصغر الأفراد سنًا.

فعندما أتى للرسول ﷺ وفد ثقيف يعلن إسلامه، كتب لهم رسول الله ﷺ

---

(١) رواه مسلم. ومجدع الأطراف أي مقطوع الأطراف.

(٢) شرح النووي: ١٢/ ٢٢٥.

(٣) رواه البخاري.

Scanned by CamScanner

كتابهم وأمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص وكان من أحدثهم سنًا وذلك انه كان أحرصهم على التفقه في الإسلام وتعلم القرآن[1].

ولقد أمَّر رسول الله ﷺ قبل وفاته أسامة بن زيد وهو لم يتجاوز الثامنة عشر على جيش يضم فيه المهاجرين والأنصار، وحرص أبو بكر بعد وفاته ﷺ على إنفاذ الجيش رغم معارضة البعض.

حدود الطاعة:

لا تكون الطاعة إلا في المعروف، فهي ليست طاعة عمياء ترتكز على الجهل والعصبية ومعصية الله والرسول.. بل هي طاعة مبصرة راشدة واعية ترتكز على ما يأمر به الشرع، ويحقق مصلحة الدعوة والإسلام[2].

روى الشيخان وغيرهما عنه صلوات الله وسلامه عليه «**السمع والطاعة حق على المرء المسلم فيما أحب وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**».

فإيما امير حاول زج من معه في أمر لا يتفق مع قواعد الشرع والعقل فأمره مردود عليه بقول ﷺ: «**عليك بالسمع والطاعة في عسرك ويسرك ومنشطك ومكرهك وأثرة عليك**»[3].

قال العلماء: معناه تجب طاعة ولاة الأمور فيما يشق وتكرهه النفوس وغيره مما ليس بمعصية، فإن كانت لمعصية فلا سمع ولا طاعة كما صرحت الأحاديث. والأثرة هي الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا عليكم أي اسمعوا وأطيعوا وإن اختص الأمراء الدنيا ولم يوصلوكم حقكم مما عندهم[4].

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: ٢٧٨.

(٢) عقبات في طريق الدعاة: ٢/ ٤٨٥، ٤٨٦.

(٣) رواه مسلم.

(٤) شرح النووي: ١٢/ ٢٢٤، ٢٢٥.

ولكن ماذا لو أمر الأمير من معه بأمر فيه خلاف فقهي بين العلماء وكان البعض يرى خلاف ما رأى أميره فهل يسوغ لهم أن يخالفوه في هذا؟

يقول د. عبد الستار فتح الله سعيد:

إن الخلاف الفقهي أمر واقع ما له من دافع، فأدلة الشرع في كثير من فروع الدين جاءت على هيئة موسعة تحتمل الاستدلال بأكثر من وجه وهذه طريقة الشرع في المسائل التي تتصل بحياة الناس في بيئات شتى فيجعل حداً أدنى يلزم به ويترك ما فوقه موسعاً تتفاوت فيه عزائم المؤمنين.

فإذا اختلف الأفراد فيما بينهم وكان رأي الأمير يتفق مع البعض ويخالف البعض فينبغي لأصحاب الرأي الآخر أن يلتزموا بأمر أميرهم ما دام الأمر خلافياً يتسع لأكثر من رأي حتى تجتمع كلمة الجميع ولا يتفرقوا.

فالالتزام بأمر الجماعة أوجب من ترك الأفضل وفعل المفضول.

وينبغي أن يُبدى كل فرد رأيه في حرية تامة، فإذا استقر الأمير بعد سماع من حوله على رأي معين وكان هذا الرأي مخالفاً للبعض، وجب على هؤلاء الالتزام بهذا الرأي بل والدفاع عنه أمام الناس.

من لوازم الطاعة:

الطاعة في المنشط والمكره: عن عبادة بن الصامت قال: دعانا رسول الله ﷺ فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا ولا ننازع الأمر أهله، قال: إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان(١).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره إلا أن يؤمر بمعصية فإن أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة»(٢).

---

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

فالسمع والطاعة لا تكون فيما تحبه النفس وترغب فيه فقط، ولكن السمع والطاعة في كل ما يحب الإنسان أو يكره وفيما هو سهل ميسور أو نادر عسير،[1] فما أسهل الطاعة في المنشط وما أصعبها في المكره.

والأمثلة التي تبين وجوب الطاعة في المكره كثيرة:

فقد وصف الله المؤمنين عندما علموا أنهم سيقاتلون المشركين في بدر كالذي يساق إلى الموت: ﴿كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ۝ يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون﴾ [الأنفال: ٥، ٦].

ويقول تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيرا لهم وأشد تثبيتا﴾ [النساء: ٦٦].

قال المؤمنون: لو فعل الله لفعلنا، وقال أحدهم: لو أمرنا الله لفعلنا والحمد لله الذي عافانا، فلما بلغ ذلك النبي ﷺ قال: «إن من أمتي لرجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي»[2].

وتحكي السيرة عن مواقف كثيرة تبين طاعة صحابة رسول الله ﷺ في المكره:

- فهذا المقداد بن عمرو يقول للرسول ﷺ قبل قتال المشركين في بدر: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى «اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون» ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون فوالذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه[3].

- وهذا حذيفة بن اليمان في غزوة الأحزاب وفي إحدى الليالي شديدة البرد

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووي.

(٢) مختصر ابن كثير: ١/ ٤١١.

(٣) تهذيب سيرة ابن هشام: ص: ١٢٩، ١٣٠.

يصب رسول الله ﷺ طلبًا.. يقول حذيفة: كنا تلك الليلة صافين قعودًا وأبو سفيان ومن معه من مشركي مكة فوقنا وبنو قريظة من اليهود أسفل منا نخافهم على ذرارينا ودارنا وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أقوى ريحًا منها فأصوات ريحها مثل الصواعق وشدة ظلامها تجعل أحدنا ما يرى إصبعه، عند ذلك قام النبي ﷺ وجعل يمر بنا واحدًا واحدًا حتى أتى إليّ وما عليّ شيء يقيني من البرد إلا مرط امرأتي ما يجاوز ركبتي، فاقترب مني وأنا جاث على الأرض وقال: من هذا؟ قلت: حذيفة. قال: حذيفة؟ فتقاصرت إلى الأرض كراهية أن أقوم من شدة الجوع والبرد وقلت: نعم يا رسول الله، فقال: إنه كائن من القوم خبر فتسلل إلى معسكرهم وائتني بخبرهم فخرجت وأنا من أشد الناس فزعًا وأكثرهم بردًا فقال رسول الله ﷺ اللهم احفظه من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله ومن فوقه ومن تحته، فوالله ما تمت دعوة النبي ﷺ حتى انتزع الله من جوفي كل ما أودعه فيه من خوف وأزال من جسدي كل ما أصابه من برد فلما وليت ناداني عليه الصلاة والسلام وقال: يا حذيفة لا تحدثن في القوم شيئًا حتى تأتيني، فقلت: نعم ومضيت أتسلل في جنح الظلام حتى دخلت في جند المشركين وصرت كأني واحد منهم[1].

وهكذا يجب السمع والطاعة في كل الأمور لا فيما تحبه النفس فقط ولكن بما تحبه وتكرهه، والذي يعين على ذلك هو يقين الأخ المسلم بأن طاعته ليست لقائده ولكن لله عز وجل كما ذكرنا سابقاً في الحديث «من أطاعني فقد أطاع الله ومن أطاع أميري فقد أطاعني ...» فهو يطيع ليثاب ويخشى أن يعصي الله بعصيان أميره.

ومن لوازم الطاعة سرعة التلبية:

وعلى الأخ المسلم أن تكون طاعته سريعة بمجرد سماعه الأمر فلا يتباطأ ولا يتثاقل ولا يتلكأ ولا يتردد، لا ينبغي له أن يكون مثل بني إسرائيل عندما أمرهم الله

(1) صور من حياة الصحابة.

ان يذبحوا اي بقرة فلم يسارعوا إلى تنفيذ الامر وبدأ التعنت والتلكؤ في الاستفسار وطلب المعاذير فشق الله عليهم، بل ينبغي عليه ان يسارع في تنفيذ ما امر به ولنا في خالد بن الوليد أروع الأمثة على ذلك عندما كان قائداً للمسلمين في اليرموك فجاء إليه كتاب بخبره بوفاة أبي بكر وعزله عن قيادة الجيش وتولية «أبو عبيدة» بدلاً منه فما كان من خالد إلا ان أسرع بتنفيذ هذا الامر وانضوى تحت لواء «ابو عبيدة» جندياً مخلصاً.

ومن لوازم الطاعة تحرّي الدقة:

وعلى الجندي أن ينفذ ما يناط به من أوامر حسب ما تمليه عليه قيادته المسلمة لا حسب ما يراه هو...

وهذا ما حدث لعبد الله بن جحش عندما بعثه الرسول ﷺ على رأس سرية وكتب له كتاباً وامره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضي لما امره به ولا يستكره من اصحابه احداً، فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه، فإذا به: «إذا نظرت في كتابي هذا فامض حتى تنزل «نخلة» بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش في الكتاب قال: سمعاً وطاعة، ثم قال لاصحابه: قد أمرني رسول الله ﷺ ان امضي إلى نخلة، أرصد بها قريشاً حتى آتيه منها بخبر وقد نهاني ان أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فاما انا فماض لامر رسول الله ﷺ فمضى ومضى أصحابه ولم يتخلف منهم احد[1].

وقد ذكرنا في قصة حذيفة بن اليمان في غزوة الاحزاب أن رسول الله ﷺ امره ان يذهب إلي معسكر المشركين ليأتيه بخبر القوم ولا يحدث شيئاً حتى يأتيه فحانت له فرصة لقتل «أبو سفيان» زعيم المشركين يقول حذيفة: ثم قام ابو سفيان إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه فوثب به على ثلاث فوالله ما اطلق عقاله إلا وهو قائم ولولا عهد رسول الله ﷺ إليّ «ألا تحدث شيئاً حتى تأتيني» ولو

---

(١) تهذيب سيرة بن هشام: (١٢٣).

خنث لقتله بسهم(١).

ولقد اجتهد الصحابي الجليل أبو لبابة في أمر بيته القائد ولا مجال للاجتهاد في أمر أدى إلى أنه عاقب نفسه بذلك عقاباً شديداً فلقد بعثه رسول الله ﷺ في بني قريظة بعد ما خانوا العهد في غزوة الأحزاب، فلما ذهب إليهم قام إليه الرجال وجهش إليه النساء والصبيان يبكون في وجهه فرق لهم وقالوا: يا أبا لبابة أترى أن ننزل على حكم محمد؟ قال: نعم - وأشار بيده إلى حلقه - إنه الذبح «فاحس أبو لبابة أنه أجاب لهم بإجابة لم يأمره بها رسول الله ﷺ فالرسول ﷺ لم يطلب منه أن يخبرهم بأنهم سيذبحون على أيدي المسلمين».

قال أبو لبابة: فوالله ما زالت قدماي عن مكانها حتى عرفت أني خنت الله ورسوله ﷺ حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عمده، وقال: لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب على مما صنعت وعاهدت الله ألا أطأ بني قريظة أبداً ولا أرى في بلد خنت الله ورسوله فيه أبداً(٢).

وأوضح مثال يوضح خطورة الاجتهاد الشخصي وعدم الدقة في تنفيذ الأوامر هو ما حدث من الرماة في أحد، فالرسول ﷺ اختار خمسين من الرماة المهرة وأعطى قيادتهم لعبد الله بن جبير الأنصاري وأمرهم بالتمركز على جبل جنوب شرق معسكر المسلمين والهدف من ذلك هو ما أبداه رسول الله ﷺ في كلماته التي ألقاها إلى هؤلاء الرماة فقد قال لقائدهم: «انضح الخيل عنا بالنبل، لا يأتونا من خلفنا، إن كانت لنا أو علينا فاثبت مكانك لا نؤتين من قبلك ثم قال للرماة: احموا ظهورنا فإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا، وإن رأيتمونا قد غنمنا فلا تشركونا، وفي رواية للبخاري أنه قال «إن رأيتمونا تخطفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هزمنا القوم ووطأناهم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم».

---

(١) تهذيب سيرة بن هشام: (١٨٥).

(٢) تهذيب سيرة بن هشام: (١٨٧).

ودارت المعركة وبينما كان الجيش الإسلامي يسجل مرة أخرى نصراً ساحقاً على مكة لم يكن أقل روعة من النصر الذى اكتسبه يوم بدر، وقعت من أغلبية فصيلة الرماة غلطة فظيعة قلبت الموازين تماماً، وادت إلى إلحاق الخسائر الفادحة بالمسلمين وكادت تكون سبباً في مقتل النبى ﷺ وقد تركت أسوأ أثر على سمعتهم والهيبة التى كانوا يتمتعون بها بعد بدر.

فبالرغم من الأوامر المشددة التى أصدرها لهم رسول الله ﷺ بلزومهم موقفهم من الجبل في كل حال من النصر أو الهزيمة، لما رأى هؤلاء الرماة أن المسلمين ينتهبون غنائم العدو، غلبت عليهم أثارة من حب الدنيا، قال بعضهم لبعض: الغنيمة الغنيمة ظهر أصحابكم فماذا تنتظرون أما قائدهم عبد الله بن جبير فقد ذكرهم أوامر رسول الله ﷺ وقال: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ، ولكن الأغلبية الساحقة لم تلق لهذا التذكير بالاً، وقالت: والله لنأتين الناس فنصيبن من الغنيمة، ثم غادر أربعون رجلا من هؤلاء الرماة مواقعهم من الجبل والتحقوا بسواد الجيش ليشاركوا في جمع الغنائم وهكذا خلت ظهور المسلمين ولم يبق فيها إلا ابن جبير وتسعة من أصحابه في مواقعهم مصممين على البقاء حتى يؤذن لهم أو يبادوا، فانتهز خالد بن الوليد الفرصة فاستدار بسرعة خاطفة حتى وصل إلى مؤخرة الجيش الإسلامي فلم يلبث أن اباد عبد الله بن جبير وأصحابه ثم انقضّ على المسلمين من خلفهم وأحيط بالمسلمين من الأمام والخلف ووقعوا بين شقي الرحى(١).

وصفوة القول أنه لا بد من التربية على الانضباط والطاعة وإعطاء الولاء للقيادة، وتنفيذ أوامرها، والتزام كل ما يصدر عنها، دون أن يكون في النفوس تردد أو يعتريها الفتور أو التثاقل ودون أن تنتصر لهوى.

الطاعة والمشاورة:

لا يعني القول بلزوم الطاعة ترك المشاورة، فإن الرئيس يجب عليه أن يشاور أفراد الجماعة وقد قال العلماء: لم يكن أحد أكثر مشورة لأصحابه من رسول الله

---

(١) الرحيق المختوم ص: ٢٩٤، ٢٩٥.

Scanned by CamScanner

ﷺ كما ان لأي فرد ان يبدي رأيه وعلى الرئيس ان يسمعه وإذا كان اصوابا خذ

به، يدل على ذلك ما جاء في السيرة النبوية(١):

ان رسول الله ﷺ خرج إلى مكة يريد العمرة في السنة السادسة للهجرة، فاستعدت قريش لمنعه من الدخول، فاراد ﷺ ان يرسل عمر بن الخطاب إليهم ليخبرهم بمقصد رسول الله ﷺ وانه جاء لزيارة البيت لا للقتال فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله اخاف قريش على نفسي وليس بمكة من بني عدي بن كعب احد يمنعني، وقد عرفت قريش عداوتي إياها وغلظتي عليها ولكن ادلك على رجل اعز بها مني: عثمان بن عفان فدعا رسول الله ﷺ عثمان بن عفان فبعثه إلى أبي سفيان واشراف قريش يخبرهم انه لم يات لحرب وإنما جاء زائرًا البيت ومعظمًا لحرمته(٢).

فلا بد من المراجعة إذا لزم او اشكل الامر فهذا عليّ رضي الله عنه يعطيه الرسول ﷺ الراية يوم خيبر، ثم يقول له: اذهب فقاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت، ويشعر على رضي الله عنه بعد مضيه لاداء مهمته ان التكليف الذي كلف به غير واضح في ذهنه، فيعود بظهره امتثالاً للامر ويسال النبي ﷺ قائلاً: علام اقاتل الناس؟ فيرد عليه النبي ﷺ قاتلهم حتى يشهدوا ان لا إله إلا الله، وان محمداً عبده ورسوله فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منا دماءهم واموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله(٣).

ويحكي القرآن عن حال طائفة في الصف المسلم أو لعلها هي طائفة المنافقين تسمع الأوامر والتكاليف فتقول سمعًا وطاعة دون مراجعة لهذه الاوامر وهذه التكاليف فإذا انصرفوا بيّت كل منهم في نفسه عدم الاستجابة لهذه الأوامر:

---

(١) اصول الدعوة: ٤٦٦.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام: ٢١٠، ٢١١.

(٣) الحديث اخرجه البخاري - كتاب الجهاد، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة - راجع آفات على الطريق: ٢ / ١٤٥.

﴿ويقولون طاعة فإذا برزوا من عندك بيّت طائفة منهم غير الذي تقول والله يكتب ما يبيّتون فأعرض عنهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا﴾.

[النساء: ٨١]

إن هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف.. قالوا: طاعة.. قالوها: هكذا جامعة شاملة، طاعة مطلقة لا اعتراض ولا استفهام ولا استيضاح ولا استثناء! ولكن ما إن يخرجوا من عند رسول الله ﷺ حتى تبيت طائفة منهم غير الذي تقول وتروح فيما بينها تتآمر على عدم التنفيذ وعلى اتخاذ خطة للتخلص من التكليف والله سبحانه يطمئن النبي ﷺ والمخلصين في الصف يطمئنهم بأن عينه على هذه الطائفة التي تبيت وتمكر، وشعور المسلمين بأن عين الله على المبيتين الماكرين يثبت قلوبهم، ويسكب فيها الطمأنينة إلى أن هذه الطائفة لن تضرهم شيئاً بتآمرها وتبييتها، ثم هي تهديد ووعيد للمتآمرين المبيتين فلن يذهبوا مفلحين، ولن يذهبوا ناجين(١): ﴿والله يكتب ما يبيّتون﴾.

من آداب الطاعة:

يقول عز وجل: ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا﴾.

[النور: ٦٣]

يعلق الشهيد سيد قطب على هذه الآية فيقول: لا بد من امتلاء القول بالتوقير لرسول الله ﷺ حتى نستشعر توقير كل كلمة منه وكل توجيه وهي لفتة ضرورية.

فلا بد للمربي من وقار، ولا بد للقائد من هيبة، وفرق كبير بين أن يكون هو متواضعاً هيناً ليناً، وأن ينسوا أنه مربيهم فيدعوه دعاء بعضهم بعضاً.

يجب أن تبقى للمربي منزلة في نفوس من يربيهم يرتفع بها عليهم في قرارة شعورهم ويستحيون هم أن يتجاوزوا معها حدود التبجيل والتوقير(٢).

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٧٢٠، الآية ٨١ النساء.
(٢) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٣٥.

يسع الفرد ما لا يسع الجماعة:

يقول الدكتور عبد الكريم زيدان: وليكن معلومًا ان ما يسع الفرد لا يسع الجماعة ان تفعله، يدل على ذلك قصة ابي بصير الذي اسلم وجاء إلى المسلمين وهم في الحديبية وقد ابرموا الصلح مع قريش - يريد ان يأووه ويحموه من قريش فأبى المسلمون ذلك لا رتباطهم بمعاهدة الحديبية التي امر بها رسول الله ﷺ فأخذ المشركون ابا بصير، ولكنه انفلت منهم واخذ يقطع الطريق على قوافل قريش، وكان عمله مؤثرًا ومضايقًا للمشركين ونافعًا للمسلمين وسائغًا له ان يفعله، بينما لم يكن هذا العمل سائغًا لجماعة المسلمين وإن كان الفعل نفسه مفيدًا للمسلمين وقد فقه المسلمون هذا المعنى فلم يطلبوا من رسول الله ﷺ ان يشتركوا مع ابي بصير في عمله النافع لانهم افراد في جماعة المسلمين يلتزمون بما تلتزم به الجماعة بينما كان ابو بصير مسلما سائبا والفرد السائب يسعه ما لا يسع الفرد في الجماعة.

وعندما أرسل رسول الله ﷺ حذيفة بن اليمان ليطلع على ما عند المشركين في حرب الخندق، قال حذيفة: **لقد أمكنني أن أقتل أبا سفيان ولكن لم أفعل لأن رسول الله ﷺ أمرني ألا أحدث شيئاً حتى آتيه**[1].

من فقه العمل مع الآخرين:

العمل مع الغير لنشر الإسلام والدعوة إلى الله يحتاج إلى فقه دقيق وصبر جميل وترويض للنفس على الطاعة وقدر كبير من ضبط النفس ونكران الذات والتواضع والقابلية على الانسجام مع سير المشتركين معه في العمل لنشر الإسلام، وقبول الرأي المخالف لرأيه إذا أقرته الجماعة أو اختاره الرئيس إلى غير ذلك من المعاني اللازمة لأي عمل جماعي.

ولهذا فليس كل مسلم يصلح للعمل الجماعي لأنه ليس كل مسلم فيه المعاني اللازمة لهذا العمل، فقد يكون صالحاً في نفسه ولكنه لا يفقه معنى النظام والطاعة،

---

(١) أصول الدعوة: ٤٦٦، ٤٦٧.

Scanned by CamScanner

فهو يعتبر النظام تقييداً لحريته ونوعاً من التعسف، ويعتبر الطاعة مذلة واستكانة لا متابعة لأمر الله وطاعة له.

ومثل هذا المسلم قد ينفع منفردا ولكنه يضر إذا عمل مع غيره وقد يكون قدوة سيئة لمن يعمل معه في إخلاله بالنظام وعدم التزامه بمقتضيات الطاعة فيختل الصف وتتفرق الآراء وتعم الفوضى والاضطراب(١).

من علامات الطاعة

الاستئذان

على الأخ المسلم ان يوقن بان الجهاد في سبيل الله لا يحتاج إلى إذن وإنما عليه ان يستأذن أثناء حركته ويجعلها تتوافق مع حركة المجموع فلا يحدث اضطراب او خلل.

يقول الله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَن يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾.

[التوبة: ٤٤، ٤٥]

يقول الأستاذ سيد قطب: هذه هي القاعدة التي لا تخطئ، فالذين يؤمنون بالله ويعتقدون بيوم الجزاء لا ينتظرون ان يؤذن لهم في أداء فريضة الجهاد، ولا يتلكئون في تلبية داعي النفرة في سبيل الله بالأموال والأرواح، بل يسارعون إليها خفافاً وثقالاً كما امرهم الله، طاعة لأمره، ويقيناً بلقائه، وثقة بجزائه وابتغاء لرضاه. وإنهم ليتطوعون تطوعاً فلا يحتاجون إلى من يستحثهم فضلا عن الإذن لهم، إنما يستأذن أولئك الذين خلت قلوبهم من اليقين فهم يتلكئون ويتلمسون المعاذير، لعل عائقاً من العوائق يحول بينهم وبين النهوض بتكاليف العقيدة التي يتظاهرون بها،

(١) أصول الدعوة: ٤٦٧.

...ويتأبون منها ويترددون، إن الطريق إلى الله واضحة مستقيمة، فما يتردد فيها إلا الذي لا يعرف الطريق أو الذي يعرفها ويتنكبها اتقاء لمتاعب الطريق[1].

فقه الاستئذان:

من القرآن فقه الاستئذان مما يسد الذرائع أمام كل مسلم ولا يدع أمامه مجالاً للشك أو التردد أو الحرج.

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٦٢) لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦٣) أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾.

[النور: ٦٢ - ٦٤]

روى ابن إسحاق في سبب نزول هذه الآيات أنه لما كان تجمع قريش والأحزاب في غزوة الخندق فلما سمع بهم رسول الله ﷺ وما أجمعوا له من الأمر ضرب الخندق على المدينة فعمل فيه رسول الله ﷺ ترغيباً للمسلمين في الأجر، وعمل معه المسلمون فيه، فدأب ودأبوا، وأبطأ عن رسول الله ﷺ وعن المسلمين في عملهم ذلك رجال من المنافقين وجعلوا يورون بالضعيف من العمل ويتسللون إلى أهليهم بغير علم رسول الله ﷺ ولا إذنه وجعل الرجل من المسلمين إذا نابته النائبة من الحاجة التي لا بد منها يذكر ذلك لرسول الله ﷺ ويستأذنه في اللحوق بحاجته

[1] في ظلال القرآن: ٣/ ١٦٦٦٢.

Scanned by CamScanner

فيأذن له فإذا قضى حاجته رجع في اولئك المؤمنين: ﴿ إنما المؤمنون ﴾ ثم
تعالى يعني المنافقين الذين كانوا يتسللون من العمل ويذهبون بغير إذن من الر
ﷺ(١) ﴿ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم ﴾
يقول الاستاذ/ سيد قطب: وأيا ما كان سبب نزول هذه الآيات فهي تنظم
الآداب النفسية التنظيمية بين الجنود والقائد.. هذه الآداب التي لا يستقيم أمر
الجنود إلا حين تنبع من مشاعرهم وعواطفهم وأعماق ضميرهم ثم تستقر في
حياتهم فتصبح تقليداً متبعاً وقانوناً نافذاً وإلا فهي الفوضى التي لا حدود لها.
﴿ وإذا كانوا معه على أمر جامع لم يذهبوا حتى يستأذنوه ﴾ [النور: ٦٢]
والأمر الجامع: الامر الهام الذي يقتضي اشتراك الجنود فيه لرأي أو لحرب او لعمل
من الاعمال العامة فلا يذهب المؤمنون حتى يستأذنوا إمامهم كي لا يصبح الام
فوضى بلا وقار ولا نظام، وهؤلاء الذين يؤمنون هذا الإيمان ويلتزمون هذا الادب لا
يستأذنون إلا وهم مضطرون فلهم من إيمانهم ومن أدبهم عاصم ألا يتخلوا عن الام
الجامع الذي يشغل بال الجنود ويستدعي تجمعهم له ومع هذا فالقرآن يرى الراي في
الإذن او عدمه للرسول ﷺ «القائد» بعد أن يبيح له حرية الإذن ﴿ فإذا استأذنوك
لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم ﴾. وكان قد عاتبه على الإذن للمنافقين من
قبل فقال: ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم
الكاذبين ﴾ [التوبة: ٤٣]. يدع له الرأي إن شاء أذن له وإن شاء لم يأذن له فيرفع
الحرج عن عدم الإذن وقد تكون هناك ضرورة ملحة ويستبقي حرية التقدير للقائد
ليوازن بين المصلحة في البقاء والمصلحة في الانصراف ويترك له الكلمة الاخيرة في
المسألة التنظيمية يدبرها بما يراه.

ومع هذ يشير إلى أن مغالبة الضرورة وعدم الانصراف هو الأولى وال

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: ١٧٧.

والاستئذان والذهاب تقصير وقصور يقتضي استغفار النبي ﷺ للمعتذرين ﴿ واستغفر لهم الله إن الله غفور رحيم ﴾ [النور: ٦٢]. وبذلك يقيد ضمير المؤمن فلا يستأذن وله مندوحة لقهر العذر الذي يدفع به إلى الاستئذان.

ثم يحذر المنافقين الذي يتسللون ويذهبون بدون إذن يلوذ بعضهم ببعض ويستتر بعضهم ببعض فعين الله عليهم، وإن كانت عين الرسول لا تراهم ﴿ قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذا ﴾. وهو تعبير يصور حركة التخلي والتسلل ويصور من النفوس الطمس ويتمثل فيه الجبن عن المواجهة وحقارة الحركة والشعور المصاحب لها في النفوس.

﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾. وإنه لتحذير مرهوب وتهديد رعيب فليحذر الذين يخالفون عن أمره ويتبعون نهجا غير نهجه ويتسللون من الصف ابتغاء منفعة أو اتقاء مضرة، ليحذروا أن تصيبهم فتنة تضطرب فيها المقاييس وتختل فيها الموازين ينتكس فيها النظام ويختلط الحق بالباطل، والطيب بالخبيث وتفسد أمور الجنود فلا يأمن على نفسه أحد ولا يقف عند حده أحد، ولا يتميز فيها خير من شر، وهي فترة شقاء للجميع ﴿ أو يصيبهم عذاب أليم ﴾ في الدنيا أو في الآخرة جزاء المخالفة عن أمر الله ونهجه الذي ارتضاه للحياة.

ويختم هذا التحذير بإشعار القلوب المؤمنة والموقنة بأن الله مطلع عليها رقيب على عملها عالم بما تنطوي عليه وتخفيه[1] ﴿ ألا إن لله ما في السموات والأرض قد يعلم ما أنتم عليه ويوم يرجعون إليه فينبئهم بما عملوا والله بكل شيء عليم ﴾ [النور: ٦٤].

* * *

---

[1] في ظلال القرآن: ٤ / ٢٥٣٤، ٢٥٣٥، ٢٥٣٦.

دروس مستفادة:

فإن أردنا أن نلخص بعض الدروس العملية المستفادة من هذه الآيات فهي كالآتي:

١- إذا دُعي الأخ المسلم إلى أي عمل يخص الإسلام والمسلمين فعليه أن يسارع بالتلبية ولا يتخلف أبداً.

٢- ويجب عليه ألا يترك العمل دون إذن قائده مهما كانت الأسباب.

٣- وعليه أن يربي نفسه على ألا يستأذن إلا في الضرورات الملحة والشديدة جداً.

٤- وعليه أن يضع في قرارة نفسه أن قائده قد لا يأذن له حتى ولو كان عذره شديداً.

٥- وعليه كذلك أن يعلم أنه وإن أذن له قائده فهذا لا يعفيه من أنه مقصر وهذا التقصير يستوجب الاستغفار.

٦- وأخيراً فعلى الأخ المسلم أن يوقن بأن الله مطلع عليه فإن تخلف بعذر زوّر الناس قهريا وهو يعلم في قرارة نفسه أنه ليس بقهري فإن الله سبحانه وتعالى سيحاسبه على ذلك.

ولنا في قصة الجد بن قيس أكبر مثل على ذلك.

ففي غزوة تبوك أمر رسول الله ﷺ الناس بأن يجهزوا أنفسهم وأخبرهم بأنه يريد الروم، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو في جهاز ذلك للجد بن قيس أحد بني سلمة: «يا جد هل لك هذا العام في جلاد بني الأصفر» فقال: يا رسول الله أو تأذن لي ولا تفتني، فوالله لقد عرف قومي أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء مني وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر ألا أصبر فأعرض عنه رسول الله ﷺ

وقال «قد اذنت لك» ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية(١) ﴿ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ [التوبة: ٤٩]. فقد سوغ الجد بن قيس لنفسه وضعا اقنع نفسه به وهو انه يخشى ان يفتن فاذن له القائد بالقعود ولكن الله فضحه في القرآن، وهناك فارق بين عصرنا الآن وعصر الجد بن قيس فقد يسوغ أي اخ لنفسه وضعا يقنع نفسه به ويأذن له به ولكن لا يوجد من يفضح هذا الوضع مثلما فضح الله موقف الجد بن قيس فليتق الله وليتذكر دائما انه مطلع عليها ﴿يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور﴾.

[غافر: ١٩]

وفي النهاية نقول إنه وإن بدا امر الاستئذان شاقا على بعض النفوس فإنه سيكون يسيراً عليها بمشيئة الله عندما توقن انها مثابة على ذلك مصداقا لقول رسول الله ﷺ «من اطاعني فقد اطاع الله ومن اطاع اميري فقد اطاعني».

يقول تعالى: ﴿ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشد تثبيتا (٦٦) وإذا لآتيناهم من لدنا أجرا عظيما (٦٧) ولهديناهم صراطا مستقيما﴾.

[النساء: ٦٦ - ٦٨]

يقول سيد قطب رحمه الله:

إن الله عز وجل يعلم ضعف الإنسان، ويرحم هذا الضعف، والله يعلم ان الناس لو كلفوا تكاليف شاقة، ما اداها إلا قليل منهم.. وهو لا يريد لهم العنت، ولا يريد لهم ان يقعوا في المعصية.. ومن ثم لم يكتب عليهم ما يشق.. ولو انهم استجابوا للتكاليف اليسيرة التي كتبها الله عليهم واستمعوا للموعظة التي يعظهم الله بها، لنالوا خيراً عظيماً في الدنيا والآخرة، ولاعانهم الله بالهدى...

(١) انظر تهذيب سيرة ابن هشام: ٢٦٧. وبني الاصفر: المقصود بهم الروم.

ويتبعه الأجر العظيم.. ونتيجة الطاعة في ... الرسول ...

لذلك كانت الآية التي تمس هذه الآيات:

﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا (٦٩) ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليما﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

فللطاعة بركة عظيمة يشعر بها كل من التزم بها التزامًا كاملاً وتامًا.

فحذيفة بن اليمان شعر ببركة الطاعة كما يروى الإمام مسلم عن إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة فقال رجل لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت فقال حذيفة أنت كنت تفعل ذلك، لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب وأخذتنا ريح شديدة وقُر[٢] فقال رسول الله ﷺ ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة فسكتنا فلم يجبه منا أحد، فقال: قم يا حذيفة فأتنا بخبر القوم فلم أجد بدًا إذ دعاني باسمي أن أقوم قال اذهب فأتني بخبر القوم ولا تذعرهم عليّ، فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فرأيت أبا سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس فأردت أن أرميه فذكرت قول رسول الله ﷺ ولا تذعرهم عليّ، ولو رميته لأصبته فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمّام فلما أتيته فأخبرته بخبر القوم وفرغت قُررت[٢] فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها فلم أزل نائمًا حتى

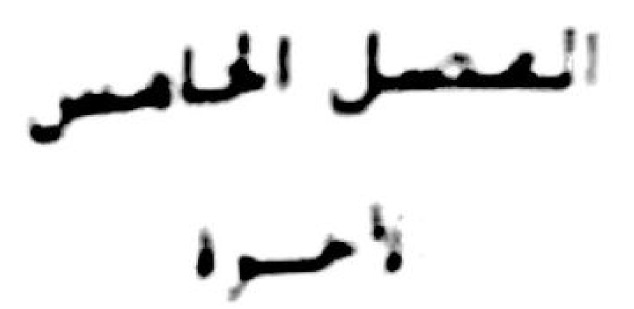
صبحت فلما أصبحت قال: قم يا نومان.

يعلق الإمام النووي على قول حذيفة: فلما وليت من عنده جعلت كأنما أمشي في حمام حتى أتيتهم فيقول:

يعني أنه لم يجد البرد الذي يجده الناس ولا من تلك الريح الشديدة شيئاً بل عافاه الله منه ببركة إجابته للنبي ﷺ وذهابه فيما وجهه له ودعائه ﷺ له واستمر اللطف به ومعافاته من البرد حتى عاد إلى النبي ﷺ فلما رجع ووصل إليه عاد البرد الذي يجده الناس وهذه من معجزات رسول الله ﷺ ولفظة الحمام عربية وهو مذكر مشتق من الحميم وهو الماء الحار[1].

• • •

[1] صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢/ ١٤٥، ١٤٦.



الفصل الخامس

Scanned by CamScanner

الفصل الخامس

الأخــوة

إن للدعوة الإسلامية قواعد تربوية وركائز متينة لا بد وأن تقام في نفوس أبنائها على أصول ثابتة، وقواعد تربوية باقية لن يتم تكوين الشخصية الإسلامية إلا بها، ولا تتكامل إلا بتحقيقها.

ومن هذه الركائز التي تحرص الدعوة الإسلامية على إقامتها في نفوس أبنائها:

الأخوة والحب في الله[1].

معنى الحب في الله:

إن معنى الحب في الله هو أن يحب كل منا في الآخر ما يحبه الله فيه، فلا يحب أحدنا الآخر لذاته بل لما فيه من صفات يحبها الله عز وجل فالذي يستحق أن يحب لذاته هو الله عز وجل، وأي حب آخر ينبغي أن يكون تابعا له.

فنحن نحب الرسول ﷺ لأن الله يحبه وأمرنا بحبه ونحب المسلمين ونكره الكافرين لذلك أيضاً. بل إننا نحب المسلم الملتزم بأوامر الله أكثر من المسلم العاصي المقصر في جنب الله، ونحب المؤمن القوى أكثر من المؤمن الضعيف لأن الله يحب به القوة، ونحب أهل المساجد المحافظين على الجُمع والجماعات وسنة الرسول ﷺ أكثر ممن لا يحافظون على ذلك.

ونحب أهل الجهاد، السائرين في الطريق الصحيح لتمكين دين الله في الأرض دون إفراط ولا تفريط - أكثر من غيرهم ممن قعدوا عن الجهاد أو انحرفوا عن طريقه.

فإذا تبين ذلك، فلا يجوز لنا أن نفضل إنساناً عن آخر إلا بهذا المقياس فلا

---

(1) الأخوة والحب في الله (٥).

نفضل ولانقرب شخصاً ما على آخر لان نفوسنا تميل إليه اكثر، وكذلك لا ننفر عن شخص ما إلا بمقدار ما فيه من صفات يبغضها الله عز وجل. فكما يقول الإمام ابن تيمية رحمه الله: وليس للخلق محبة اعظم ولا اكمل ولا اتم من محبة المؤمنين لربهم، وليس في الوجود ما يستحق ان يحب لذاته من كل وجه إلا الله تعالى، وكل ما يحب سواه فمحبته تبعاً لحبه، فإن الرسول ﷺ إنما يُحب لاجل الله، ويطاع لاجل الله، ويتبع لاجل الله كما قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٣١]. وفي الحديث «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي»(١).

فضل الأخوة في الله:

للاخوة في الله فضل عظيم.. ولم لا وهي تعد بحق اسمىٰ علاقة بين البشر في الوجود فالقاسم المشترك في العلاقة بين الناس مهما تعددت وتنوعت هو المصالح الشخصية فبقدر المنفعة المتحققة من شخص ما يكون الحرص على تكوين علاقة معه، إلا المتآخين في الله فعلاقة بعضهم ببعض علاقة خاصة بدات من عند الله، واختار لها من اختار من عباده، وجمع بين قلوبهم والف بينهم وحبّب كلاً منهم للآخر دون سبب منهم في ذلك. لا تستطيع اي قوة ارضية ان تُنشئ مثل هذه العلاقة لانها من عند الله يقول تعالى: ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾.

[الانفال: ٦٣]

ولقد جعل الله عز وجل للمتآخين فيه عظيم المثوبة وعلو المنزلة.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقول يوم القيامة: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظلم يوم لا ظل إلا ظلي»(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى لابن تيمية: ١٠/ ٦٤٩.

(٢) رواه مسلم.

وعن معاذ رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: المتحابون في جلالي لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء»(١).

وقال ﷺ: «ما تحاب اثنان في الله إلا كان أحبهما إلى الله أشدهما حبا لصاحبه»(٢).

مقاييس الأخوة وشروطها(٣):

للأخوة في الله مقاييس وشروط لا بد من معرفتها والاهتمام بها والانتهاج عليها لأن فيها سعادة الإنسان في الدنيا.. والله تعالى يحاسب المرء عنها يوم القيامة.

قال ﷺ: «المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل»(٤).

وقال: «من أحب قوما حشر معهم» وما دام الأمر على هذه الدقة والخطورة فما هو المقياس الذي ينبغي علينا أن نقيس به أخوتنا في الله، وما هو الميزان الذي نزن به خطر هذا الانتقاء؟

لقد حدد الله عز وجل هذا المقياس على لسان موسى عليه السلام: ﴿واجعل لي وزيرا من أهلي ﴿٢٩﴾ هرون أخي ﴿٣٠﴾ اشدد به أزري ﴿٣١﴾ وأشركه في أمري ﴿٣٢﴾ كي نسبحك كثيرا ﴿٣٣﴾ ونذكرك كثيرا ﴿٣٤﴾ إنك كنت بنا بصيرا﴾ [طه: ٢٩-٣٥]. لقد حدد موسى عليه السلام الغاية من الأخوة التي ننشدها، فهو يريد من أخيه هارون أن يكون سنداً له يشد عضده ويعينه على نوائب الحياة، وهو يريده شريكا في أمره يقاسمه بؤسه ونعيمه ويتبادل وإياه الرأي حياله، ثم هو يريده أخا

(١) رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.
(٢) أخرجه ابن حبان والحاكم من حديث أنس.
(٣) الأخوة والحب في الله محسن جرار: (٢٤-٢٩) بتصرف يسير.
(٤) رواه أبو داود وأحمد والحاكم والترمذي وقال: حديث حسن.

يحث على ذكر الله وتسبيحه.

فهذه الصفات الثلاث: التعاون على الحياة، والمشاركة في الأمر، والإعانة على ذكر الله هي المقياس الذي ينبغي أن نلتمس به من نريد مؤاخاتهم في الله عد الصفات هي المثل الأعلى الذي تنشده الأخوة في الله.. ولكن هذه الصفات قد توجد في المرء دفعة واحدة وإنما تتكامل على مر الأيام.. فالأخ الذي تبحث عنه لنفسك إنما يبحث عنك لنفسه، فمثل الأخوين إذا التقيا كمثل اليدين تغسل إحداهما الأخرى كذلك الأخوان في الله في كل منهما عيوب تزول بالتذكير والتنبيه والتناصح والتواصي بالحق.

أما شرائط هذه الأخوة فهي.. أن تكون لله وفي الله بحيث تخلو من شوائب الدنيا وعلائقها المادية، ويكون الباعث عليها الإيمان بالله تعالى لا غير.

ويمكن أن نوجزها بما يلي:

١- أن تكون خالصة لله.. وذلك أن يتنزه المتآخون من كل مصلحة دنيوية ويتجردوا من كل منفعة شخصية ومما يدل على ذلك الحديث الذي رواه مسلم عن رسول الله ﷺ قال «أن رجلا زار أخا له في الله فأرصد الله له ملكا، فقال: أين تريد؟ قال: أريد أن أزور أخي فلانا فقال: لحاجة لك عنده؟ قال: لا. قال فلم؟ قال: أحبه في الله، قال: فإن الله أرسلني أخبرك بأنه يحبك لحبك إياه وقد أوجب لك الجنة»(١).

٢- أن تكون الأخوة مقرونة بالإيمان والتقوى ... وذلك بأن ينتقي المسلم من الأصحاب مؤمنهم، وأن يختار من الأصدقاء أتقاهم وأحسنهم أخلاقاً. قال تعالى: ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٣- أن تكون الأخوة ملتزمة منهج الإسلام باتباع الكتاب والسنة والبعد عن الضلالة والبدعة، إلى هذا أشار النبي ﷺ في الحديث الشريف «ورجلان تحابا

---

(١) رواه مسلم.



في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه»(١).

ومن أجل هذا ... وفي ظلال هذه الأخوة والحب في الله كان الرجلان من أصحاب رسول الله ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر، ثم يسلم أحدهما على الآخر، فكانا يتعاهدان على الإيمان والعمل الصالح، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

٤ ـ أن تكون الأخوة قائمة على التناصح في الله.. وذلك بأن يكون الأخ مرآة أخيه المؤمن فإن رأى أحدهما من أخيه خيراً شجعه عليه وطلب منه المزيد، وإن رأى منه تقصيراً نصحه سراً، وطلب منه أن يتوب إلى الله ويعود إلى الحق.

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتناصحون فيما بينهم ويبايعون النبي ﷺ على هذا التناصح ... روى الشيخان عن جرير ابن عبد الله رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله ﷺ على إقام الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم.

٥ ـ أن تكون الأخوة قائمة على التعاون والتكافل في السراء والضراء يقول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائره بالحمى والسهر»(٢).

وقد أوجز الآداب في اختيار الأصحاب أحد الصالحين فقال يوصي ابنه: يا بني إذا عرضت لك إلى صحبة الرجل حاجة فاصحب من إذا خدمته صانك، وإذا صحبته زانك.. اصحب من إذا مددت له يدك بخير مدها، وإن رأى منك حسنة عدها وإن رأى سيئة سدها.. اصحب من إذا سألته أعطاك. وإن سكت ابتداك وإن نزلت بك نازلة واساك.. اصحب من إذا قلت صدق قولك وإن حاولتما أمراً أمرك، وإن تنازعتما شيئاً آثرك.

---

(١) من حديث السبعة رواه البخاري ومسلم.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم.

حقوق الأخوة وواجباتها(١):

حقوق الأخوة في الإسلام تنقسم إلى قسمين: حقوق عامة وحقوق خاصة.

أما الحقوق العامة: فهي حقوق واجبة على كل مسلم تجاه أخيه المسلم ومن أهم الأمور التي تناولها هذه الحقوق: إفشاء السلام، ورد السلام، وعيادة المريض، واتباع الجنائز، وإجابة الدعوة، وتشميت العاطس، وإبرار المقسم، ونصر المظلوم، والتنفيس عن المكروب، والإغضاء عن العيوب والابتعاد عن الأذى كالحسد والتباغض والظلم والغيبة والتحقير، وإخلاص النصيحة وقد ورد في السنة النبوية الشريفة أحاديث كثيرة تبين هذه الحقوق منها:

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تحسسوا، وتجسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانا .. المسلم أخو المسلم: لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره.. التقوى ههنا – ويشير إلى صدره – بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وعرضه وماله.

الحقوق الخاصة:

وهي حقوق عظيمة وجليلة .. لها دور كبير هام في تربية أبناء الدعوة الإسلامية، لأنها تقوم على استخلاص الصفوة المختارة من إخوة الإيمان وجيل الإسلام. هذه الصفوة التي يختارها المسلم لنفسه، ويستخلصها لشخصه، لتكون له في الحياة عوناً على الشدة، وسنداً في المحنة، ومشاركة للفرح، ومرجعاً للشورى

---

(١) الأخوة والحب في الله: (٣٣ – ٤٧).

Scanned by CamScanner

ومن ... هذه الحقوق كل إنسان احببته في الله، وكل اخ تعمل معه في ... ونصح وتتشارك كلمة الإسلام.

... الحقوق بالإضافة إلى الحقوق العامة هي:

١ ـ حق اخيك في مالك: يكون بالمعاونة والمساعدة بالمال... فيساعد الاخ ... إن احتاج إليه.

يقول الإمام الغزالي: والمواساة بالمال مع الإخوة على ثلاث مراتب: ادناها ان ... حاجة اخيك من فضل مالك، واوسطها ان تنزله منزلة نفسك فتشاطره نصف ... واعلاها ان تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك بأن تنزل عما ... إليه من مالك إيثاراً له وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين وهذه ... هي التي يقول الله عز وجل فيها ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن عمر رضي الله عنهما: اهدي لرجل من أصحاب رسول الله ﷺ رأس ... فقال: اخي فلان احوج مني إليه فبعثه ذلك الإنسان إلى آخر، فلم يزل يبعث ... واحد إلى آخر حتى رجع إلى الأول بعد ان تداوله سبعة.

ـ وروي ان «مسروقاً» ادين ديناً ثقيلاً، وكان على اخيه خيثمة دين... فذهب مسروق فقضى دين خيثمة وهو لا يعلم، وذهب خيثمة فقضى دين مسروق وهو لا يعلم.

ـ قال ابو سليمان الداراني: إني لالقم اللقمة اخا من إخواني فاجد طعمها في حلقي.

٢ ـ حق اخيك في لسانك:

قد لا يحتاج اخوك إلى مالك لأن الله اغناه من فضله، وقد يتوفر له من يقوم ... حوائجه ولكنه دائم الحاجة إلى لسانك وإلى قلبك.

اما حقوقه في لسانك فثلاثة:

الأول: أن تكف عنه لسانك إلا بخير ... فلا تذكر له عيباً في غيبته أو حضوره، ولا تسخر منه ولا تلمزه، ولا تكذبه الحديث ولا تشتمه ولا تلقبه بما يكره، ولا تفش له سراً ولا تحاول التطلع إلى خبايا نفسه، ولا تفضح عيباً وجدته فيه، وإنما تستر عيوبه ما وجدت إلى ذلك سبيلاً فإذا رأيت عيباً في أخيك فلا تذكره امام الناس ولكن انتظر حتى تخلو به.

الثاني: أن تعطيه من لسانك ما يحبه منك، فتدعوه بأحب الأسماء إليه، وتذكره بالخير في الغيبة والحضور، وتبلغه ثناء الناس عليه، وتُظهر اغتباطك بذلك، وفرحك به، ولا تسترسل في نصحه فتثقله ولا تنصحه امام الناس فتفضحه.

الثالث: أن تدعو له ولأولاده.. فتدعو له حيًا وميتًا وحاضرًا وغائبًا. قال ﷺ: «إذا دعا الرجل لأخيه بظهر الغيب قال الملك ولك مثل ذلك»(١).

وكان أبو الدرداء يقول: إني لأدعو لسبعين من إخواني في سجودي أسميهم بأسمائهم.

٣- حق أخيك في قلبك:

حق أخيك في قلبك تجمعه كلمتان: العفو والوفاء.. أما العفو عن أخيك فلأنك تعلم ان أخاك ليس معصوما من الاخطاء، فلا بد له من هنات وسقطات. وإنما تكشفت لك هذه السقطات لقربك منه، وطول معاشرتك له.

فمن الوفاء لأخيك أن تعفو عن زلته، وتتغاضى عن هفواته، وتستر عيوبه، وتحسن به ظنونك، وإن ارتكب معصية سراً أو علانية فلا تقطع مودته، ولا تهمل أخوته، بل انتظر توبته.

ومن الوفاء لأخيك ان تثبت على أخوته، وتديم عهدها، لان قطعها محبط لأجرها فمعنى الوفاء هو الثبات على الحب مع أخيك وادامته إلى الموت وبعد الموت

أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبط العمل وضاع السعي.

ولقد أكرم الرسول ﷺ عجوزًا دخلت عليه، فقبل له في ذلك فقال: «إنها كانت تأتينا أيام خديجة وإن حسن العهد من الإيمان»(١).

٤- حق أخيك عليك.. ألا تكلفه بما يشق عليه:

من حق أخيك عليك ألا تكلفه ما يشق عليه، وألا تحمله ما لا يرتاح معه، فلا تريد أن تستمد منه شيئًا من جاه أو مال، أو تلزمه بالقيام بأعمال.. فأصل الأخوة بينك وبينه فلا ينبغي أن تحول إلى غيره من جلب منافع الدنيا..

قال بعض الصالحين: من سقطت كلفته، دامت ألفته، ومن خفت مئونته دامت مودته، فعلى الأخ ألا يقصد بمحبته لأخيه إلا الله تعالى تبركًا بدعائه واستئناسًا بلقائه واستعانة به على دينه.

٥- حق أخيك عليك أن تحب النفع له وأن تكره مضرته:

من علائم الأخوة الكريمة أن تحب النفع لأخيك، وأن تهش لوصوله إليه كما تبتهج بالنفع يصل إليك، فإذا اجتهدت في تحقيق هذا النفع فقد تقربت إلى الله بأزكى الطاعات وأجزلها مثوبة

ومن حق أخيك عليك أن تكره مضرته، وأن تبادر إلى دفعها، فإن مسه ما يحزن به شاركته الألم، وأحسست معه الحزن.

وهنا مصداقًا لحديث رسول الله ﷺ: «مثل المسلمين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى»(٢).

---

(١) أخرجه الحاكم من حديث عائشة وقال صحيح على شرط الشيخين وليس له علة.

(٢) رواه البخاري.

والتألم الحق هو الذي يدفعك دفعاً إلى كشف الضيق عن إخوانك، ولا تهدأ حتى تزول غمته وتدبر ظلمته، فإذا نجحت في ذلك استنار وجهك واستراح ضميرك.

٦- حق أخيك عليك أن تكون عوناً له ونصيراً:

من حق الأخوة أن يشعر المسلم بأن إخوانه ظهير له في السراء والضراء، وأن نزن لا تتحرك في الحياة وحدها، بل إن قوى المؤمنين تساندها وتشد أزرها.

٧- حق أخيك عليك أن تتغافر له:

فالتغافر والتسامح والعفو عن الزلات من صفات المؤمن، الذي يكظم الغيظ وينتحل الأعذار لإخوانه ويحسن الظن بهم، ويختار من الكلمات ما يسل السخيمة من الصدور وقد ضرب ابن السماك الزاهد مثلاً في ذلك حينما قال له صديق: الميعاد بيني وبينك غداً نتعاتب فقال له ابن السماك: بل الميعاد بيني وبينك غداً لنتغافر.

فلا تخدش يا أخي محبة إخوانك بكثرة العتاب، والتمس لهم العذر وتغافر معهم.

آداب ووسائل لتعميق روح الأخوة(١):

لقد وضع الإسلام من الآداب العملية، والوسائل الإيجابية في توثيق عرى المحبة وتعميق روح الأخوة.. ما إن أخذ بها المتآخون في الله، وعملوا بمقتضاها زادت أخوتهم مع الأيام ارتباطاً وتوثيقاً.

ومن أهم الآداب والوسائل التي تعمق روح الأخوة:

---

(١) الأخوة الإسلامية د. عبد الله ناصح علوان بتصرف.

١- إذا أحب الرجل أخاه فليخبره أنه يحبه:

روى أنس رضي الله عنه أن رجلاً كان عند النبي ﷺ فمر رجل به فقال: يا رسول الله إني لأحب هذا، فقال النبي ﷺ «أأعلمته؟» قال: لا، قال عليه الصلاة والسلام «أعلمه» فلحقه فقال: إني أحبك في الله. فقال الرجل: أحبك الذي أحببتني له[1].

٢- إذا لقي الأخ أخاه فليبادر إلى مصافحته:

روى أبو داود عن البراء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما من مسلمين يلتقيان فيتصافحان إلا غفر لهما قبل أن يفترقا».

٣- إذا لقي الأخ أخاه فليطلق وجهه عند اللقاء:

روى الإمام مسلم عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحقرن من المعروف شيئاً ولو أن تلقى أخاك بوجه طليق».

٤- إذا فارق الأخ أخاه فليطلب منه الدعاء في ظهر الغيب:

روى أبو داود والترمذي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: استأذنت النبي ﷺ في العمرة فأذن لي وقال: «لا تنسنا يا أخي من دعائك» فقال كلمة ما يسرني أن لي بها الدنيا».

٥- أن يكثر الأخ من زيارة أخيه بين كل فترة وفترة:

روى الإمام مالك في الموطأ أن النبي ﷺ قال: قال الله تعالى: «وجبت محبتي للمتحابين فيّ، والمتجالسين فيّ والمتزاورين فيّ، والمتباذلين فيّ».

٦- أن يهنئ الأخ أخاه ويدخل عليه السرور عند كل مناسبة طيبة.

---

[1] رواه أبو داود بإسناد حسن.

Scanned by CamScanner

في قضاء حوائجه:

٧- أن يبدي له اهتماماً كبيراً في قضاء حوائجه:

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه».

أمل واستبشار:

وفي النهاية فيا أخي في الله يا من توحدت قلوبنا وأفكارنا وخطوات سيرنا لا تنس وقت الغروب، واذكرني في دعائك، عسى الله أن يجمع بيننا في الجنة كما جمع بين قلوبنا في الدنيا ﴿إخواناً على سرر متقابلين﴾ [الحجر: ٤٧]. ولعله سبحانه يظلنا في ظله يوم لا ظل إلا ظله ويسوقنا جمعاً مع زمر الصالحين إلى الجنة: ﴿وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً﴾ [الزمر: ٧٣] فنسير وإخواننا إلى الجنة معاً كما كنا في الدنيا فندخلها معاً.. وهناك نتمتع برؤية مولانا وحبيبنا الذي أحسنت من أحله، ونرى محمداً ﷺ وصحبه، ونرى كذلك إخواننا وشهداءنا ممن سمعنا وقرأنا عنهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا دخل أهل الجنة الجنة يشتاق الإخوان بعضهم إلى بعض، قال: فيسير سرير هذا إلى سرير هذا، وسرير هذا إلى سرير هذا حتى يجتمعا جميعاً، فيقول أحدهما لصاحبه: تعلم متى غفر الله لنا؟ فيقول صاحبه: يوم كنا في موضع كذا وكذا فدعونا الله فغفر لنا»(١).

* * *

Scanned by CamScanner

الفصل السادس

التجرد

قال تعالى:

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك لك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير﴾.

[الممتحنة: ٤]

Scanned by CamScanner

التجرد وصوره

المعنى المشترك الذي تدور حوله كلمة التجرد في المعجم هو خلوص الشيء من ما فيه، فالتجرد من الأمر التخلي عنه، والتجرد للأمر الجد فيه.

وللتجرد صور كثيرة نذكر منها:

١- تجريد القصد والنية:

فالمؤمن يجرد نيته لله، فلا يقدم على أمر ما إلا بعد أن يتأكد من إخلاص نيته فيه،

فلا يقوم بأداء العمل طلبا للرفعة والحمد عند الناس، أو خوفا من مذمتهم، أو ملأ منهم، أو حمية وغضبا، أو لأنه اعتاد القيام بهذا العمل.

ولقد سُئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة، ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»(١).

وجاء رجل إلى عبادة بن الصامت فقال أنبئني عما أسألك عنه، أرأيت رجلا يصلي يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويصوم يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويتصدق يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، ويحج يبتغي وجه الله ويحب أن يحمد، فقال له عبادة: ليس له شيء، إن الله تعالى يقول: «أنا خير شريك فمن كان له معي شريك فهو له كله لا حاجة لي فيه»(٢).

٢- تجريد التوحيد:

والأخ المسلم كذلك يجرد اعتقاده وتوحيده من الشركيات: فلا يذبح

---

(١) متفق عليه.

(٢) مختصر ابن كثير: (٢/ ٤٤٠).

لغير الله، ولا يصادق إلا فيه، ولا يعادي إلا له، ولا يحب ولا يبغض إلا [illegible]
ولا يستحي يقوم على قضاء مصالحه، ولا يعادي الصالحين، ولا [illegible]
لأمره، ولا يتطير، ولا يتبرك بالأشجار والأحجار ونحوها.

٣- تجريد المشاعر:

المؤمن يجرد مشاعره وعواطفه [illegible]!

تجريد الولاء والبراء:

المؤمن يجرد ولاءه لله... فلا ولاء للقومية ولا للوطنية، ولا [illegible] بل لله. فالمسلم نسبه الإسلام. كما قال إبراهيم عليه السلام: ﴿فمن تبعني فإنه مني﴾ [إبراهيم: ٣٦]. وكما قال الله تعالى لنوح عليه السلام عندما [illegible] لابنه من الطوفان: ﴿إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح﴾ [هود: ٤٦].

وفي سورة الممتحنة يضرب القرآن لنا أروع الأمثلة في التجرد [illegible] فعندما عزم رسول الله ﷺ على فتح مكة أرسل حاطب بن أبي بلتعة إلى أهل مكة بكتاب يخبرهم فيه بعزم الرسول ﷺ على الفتح، فلما سأله الرسول ﷺ: يا حاطب ما هذا؟! قال: لا تعجل علي إني كنت امرأ ملصقا في قريش ولم أكن من أنفسهم وكان من معك من المهاجرين لهم قرابات يحمون أهليهم بمكة، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن أتخذ فيهم يداً يحمون بها قرابتي، وما فعلت ذلك كفراً ولا ارتداداً عن ديني، ولا رضا بالكفر بعد الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: إنه صدقكم. فنزل القرآن: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل﴾ [الممتحنة: ١].

ثم ذكر القرآن قصة إبراهيم والذين معه كأسوة لنا وكمثل نحتذي به، [illegible] وهم الذين تبرءوا من قومهم وفيهم آباؤهم وإخوانهم وعشائرهم وقاطعوهم لكفرهم

﴿قد كانت لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا
منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة
أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده﴾ [الممتحنة: ٤].

والله عز وجل نهى المؤمنين في المدينة عن ولاية إخوانهم المؤمنين الذين لم
من مكة لأنهم لم يظهروا تجردهم التام لله وولائهم له بعدم هجرتهم فقال
﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله
ووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا ولم يهاجروا ما
من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا وإن استنصروكم في الدين فعليكم
إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق والله بما تعملون بصير﴾ [الأنفال: ٧٢].

يقول الأستاذ سيد قطب: إن علاقة المجتمع الإسلامي ليست علاقات الدم ولا
الأرض، ولا علاقات الجنس، ولا علاقات التاريخ، ولا علاقات اللغة، ولا
الاقتصاد، ليست هي القرابة وليست هي الوطنية، وليست هي القومية إنما
علاقة العقيدة، وعلاقة القيادة، وعلاقة التنظيم الحركي. فالذين آمنوا وهاجروا
لهجرة والإسلام متجردين من كل ما يمسكهم بأرضهم وديارهم وقومهم
هم وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، والذي آووهم ونصروهم
مهم لعقيدتهم وقيادتهم في تجمع حركي واحد أولئك بعضهم أولياء بعض،
من آمنوا ولم يهاجروا ليس بينهم وبين المجتمع المسلم ولاية، لأنهم لم يتجردوا
العقيدة ولم يدينوا بعد للقيادة، ولم يلتزموا بعد بتعليمات التجمع الحركي
بعد..

لقد انخلع كل من قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله في مكة
الولاء لأسرته، والولاء لعشيرته، والولاء لقبيلته، والولاء لقيادته الجاهلية المتمثلة
قريش، وأعطى ولاءه وزمامه لمحمد رسول الله ﷺ وللمجتمع الصغير الناشئ
متمثل بقيادته(١).

---

(١) ظلال القرآن: (٣/ ١٥٥٤).

تجريد التحاكم والتخاصم

المسلم لا يتحاكم إلا إلى الله وشريعته، ولا يتخاصم إلا به، فلا يرى متحاكماً موالٍ وصحبه مخالفاً لشرع الله.

من حديث أن رسول الله ﷺ كان يقول: «اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت وبك خاصمت وإليك حاكمت»(1). وقد عاب الله عز وجل من التحاكم لغيره، وعد أي حكم مخالف له حكماً جاهلياً قال تعالى: ﴿أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾.

يقول ابن كثير: ينكر تعالى على من خرج عن حكم الله المحكم المشتمل على كل خير الناهي عن كل شر، وعدل إلى ما سواه من الآراء والأهواء والاصطلاحات التي وضعها الرجال بلا مستند من شريعة الله، كما كان أهل الجاهلية يحكمون به من الضلالات والجهالات، مما يضعونها بآرائهم وأهوائهم»(2).

تجريد الرجاء

الأخ المسلم لا يرجو إلا الله ولا يتعلق قلبه بأحد سواه، والدليل على صدق رجائه له عدم تطلعه لما عند الناس وعدم الطمع إلى ما في أيديهم من مال، منصب أو امرأة أو مدح أو غير ذلك.

تجريد الخوف:

المسلم ينبغي عليه ألا يخاف إلا من الله ولا يخشى سواه، فقد جمع همه في هم واحد، وهو هم الخوف من الآخرة، والقدوم على الله، ولقد انعكس هذا الخوف على أصحاب الدعوة لا يخشى في الله لومة لائم، يجهر بالحق مهما كانت النتيجة.

تجريد الغضب:

الأخ المسلم لا يغضب إلا لله، فلا غضب لنفسه ولا انتقام لها.

---

(1) متفق عليه من حديث ابن عباس

(2) مختصر تفسير ابن كثير (1/ 525)

... عنها أنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط بيده، ولا امرأة، ولا خادما، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نيل منه شيء قط فينتقم من صاحبه، إلا أن ينتهك شيء من محارم الله تعالى، فينتقم لله تعالى(1).

... عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه الخلافة، خرج ليلة ومعه حرس، ... في الظلمة برجل نائم فعثر به، فرفع رأسه إليه فقال: أمجنون ... فهم به الحرس، فقال لهم عمر: مه! إنما سألني أمجنون أنت؟ ... لا(2).

... التوكل:

... المسلم لا يتوكل إلا على الله، فهو يعلم مدى ضعفه وفقره وحاجته إلى ... يعتمد على ذكائه أو خبرته أو لباقته أو ثرائه أو جاهه أو حسبه أو مواهبه ... قيامه بالأعمال، ليقينه بأن تلك الأمور ما هي إلا أعراض.

... يقول تعالى: ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغني الحميد إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (16) وما ذلك على الله بعزيز﴾.

[فاطر: 15 - 17]

... تجريد المتابعة:

... المسلم بمجرد فعله لله، فلا يقوم بأداء عمل ما إلا إذا كان موافقا للشرع ... من البدع. قال تعالى: ﴿وأن هذا صراطي مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾ [الأنعام: 153].

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد»(3).

... فالخير كل الخير في اتباع الرسول ﷺ، فما ترك لنا من أمر يقربنا إلى الله إلا

(1) ... مسلم.

(2) ... سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي: (208).

(3) ... متفق عليه.

ودلنا عليه، وما ترك لنا من أمر يبعدنا عن الله إلا ونهانا عنه: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾ [آل عمران: ٣١]. فأفعال الرسول ﷺ وأقواله هي المقياس الذي نقيس به أفعالنا، وإن اختلفنا في شيء فلنرجع إلى كتاب الله وسنة الرسول ﷺ.

٥- تجريد السلوك:

الأخ المسلم متجرد لله في سلوكه وأفعاله فغايته رضا ربه، ويتجلى هذا التجرد في أمور كثيرة منها:

- تجريد الأخوة:

فالمسلم جرد أخوته من المنافع والمصالح وجعلها خالصة لوجه الله، ففي الحديث: «أن رجلاً زار أخاً له في قرية أخرى، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكا فلما أتى عليه: قال: أين تريد؟ قال أريد أخاً لي في هذه القرية، قال: هل لك عليه من نعمة تربها عليه، قال: لا غير أني أحببته في الله تعالى، قال الملك: فإني رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه»(١).

والدليل على صدق تجريده لأخوته عدم مداهنة أخيه بل ونصحه إذا ما احتاج للنصيحة يقول الإمام أبو حامد الغزالي:

آخى الشافعي رضي الله عنه محمد بن عبد الحكم وكان يقربه ويقبل عليه ويقول ما يقيمني بمصر غيره، وظن الناس لصدق مودتهما أنه يفوض أمر حلقته إليه بعد وفاته، فقيل للشافعي في علته التي مات فيها رضي الله عنه إلى من نجلس بعدك يا أبا عبد الله فاستشرف له محمد بن عبد الحكم وهو عند رأسه ليومئ إليه، فقال الشافعي: سبحان الله أيشك في هذا أبو يعقوب البويطي فانكسر لها محمد ومال أصحابه إلى البويطي مع أن محمد كان قد حمل عنه مذهبه كله، لكن كان البويطي أفضل وأقرب إلى الزهد والورع، فنصح الشافعي لله وللمسلمين وترك المداهنة ولم يؤثر رضا الخلق على رضا الله تعالى، فلما توفي

---

(١) رواه مسلم.

Scanned by CamScanner

انقلاب محمد بن عبد الحكم عن مذهبه ورجع إلى مذهب أبيه ودرس كتاب مالك رحمه الله (1).

تجريد النصح:

الأخ المسلم ينصح من حوله لله، ولا تمنعه القرابة أو الأخوة أو الحاجة من إسداء النصح، فلقد قوي مراقبته، واستجمع شجاعته ليقول للمحسن: أحسنت، وللمخطئ أخطأت، وهو حين ينصح فإنه لا يريد من وراء ذلك إلا مصلحة من ينصحه، لا الشماتة فيه أو إظهاره بمظهر الجاهل أو المقصر والدليل على ذلك حرصه على نصح أخيه سرًا وانتقاء اللطف وأطيب الألفاظ كما قال تعالى: ﴿ وَقُل لِّعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ﴾ [الإسراء: ٥٣].

تجريد التقييم والنقد والحكم بين الناس:

الأخ المسلم يتجرد من عاطفته عند حكمه بين الآخرين، فلا يظلم عدوه ولا يحابي صديقه كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة: ٨]. والمسلم كذلك متجرد عند تقييمه لغيره فلا يتغير تقييمه بتغير مشاعره تجاه من يقيمه.

فلا يبرر العيوب وقت الرضا، ولا يتصيد الأخطاء وقت السخط كما قال الشاعر:

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ... ولكن عين السخط تبدي المساويا

تجريد الوقت:

الأخ المسلم حريص على وقته ويجرده من كل ما يبعده عن الله، فلا لهو ولا لغو بل تسابق في الخيرات فهو في شغل دائم إما من أجل دينه أو من أجل دنياه،

---

(1) إحياء علوم الدين: (٢/ ١٨٨).

كما قال تعالى ﴿فإذا فرغت فانصب﴾ [الشرح: ٧].

تجريد الحال مع الله:

المسلم يعمل دائما على تجريد حاله مع الله وتصفية وقته معه من كل ما يكدر، فلا يترك خواطر الدنيا تتتابع إلى ذهنه وقت صلاته او دعائه او ذكره لله، بل يمر على دعمها ولا يسير وراءها فهو يعلم انه بدون حضور القلب مع الله وجمعه في عباداته فستكون هذه العبادات صورا بلا روح.

٦- تجريد الفكر:

الاخ المسلم جرد فكره من كل فكرة مخالفة للإسلام فالفكرة الإسلامية قد هيمنت عليه ورسخت معانيها في عقله ووجدانه فلا مكان للافكار المضادة او للنظريات المخالفة لمنهج الإسلام كالفكر العلماني والشيوعي والاشتراكي والراسمالي.

يقول الأستاذ حسن البنا رحمه الله وأريد بالتجرد أن تخلص لفكرتك مما سواها من المبادئ والأشخاص، لأنها أسمى الفكر وأجمعها وأعلاها[1] ﴿صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً﴾ [البقرة: ١٣٨].

والاخ المسلم لا يطلع على الأفكار المضادة للفكرة الإسلامية إلا بعد ان تتمكن هذه الفكرة منه اولا فصفاء الابتداء ووحدة التلقي من الامور الضرورية في بداية تكوين الشخصية الإسلامية، ولا باس بعد ذلك من دراسة هذه الأفكار من باب التحصن ضدها واكتساب القدرة على الرد على اصحابها ومن يتبناها إذا ما لزم الامر.

٧- تجريد الحركة:

الاخ المسلم بعد ان جرد فكره وصبغه بصبغةالإسلام، وتشبع عقله بالفكرة الإسلامية، فإنه يجرد حركته للعمل من اجل إقامة الإسلام وسط الناس وتحويل

(١) مجموعة الرسائل: ٧٥.

[الدعوة] الإسلامية من نظريات في العقول إلى واقع حتى يلمسه الناس فحياته كلها
...، قد هيمنت على قلبه، فاخضع غرائزه ودوافعه جميعها لها فهو يغضب
ويحب ابناءه ويجمع المال ويدخره ويستعلي ويتواضع، ولكنه يغضب في
دعوته ويخاف من اجلها، ويحب ابناءه إذا اعانوه على حملها، ويجمع المال
في سبيل دعوته، ويستعلي على اعداء دعوته، ويتواضع لاصحابها إن احتا...
يعمل: لا يفتر ولا يستقر ولا يعرف كللا ولا مللا، ولا يطلب راحة ولا هدوءاً(1).

لدعوته حية في اعصابه، متوهجة في ضميره، تصبح في دمائه فتعجله عن
راحته والدعة إلى الحركة والعمل، وتشغله بها عن نفسه وولده وماله، تحس
به بدعوته في النظرة والحركة والإشارة، يتذكر دعوته في نومه ويقظته،
وعلى طعامه وبين أهله وحال سفره، وفي كل مجالسه، إذا قصد إنسانا
فلدعوة، وإذا سالمه أو عاداه فلها وإذا فرح أو حزن فمن أجلها(2).

ولقد كان هذا هو حال الصحابة - رضوان الله عليهم - كانت الدعوة للإسلام
في المسألة الأولى الحاضرة لديهم في كل وقت من أوقات حياتهم فاغلب العشرة
المبشرين بالجنة دخل الإسلام بدعوة أبي بكر، وكثير من الصحابة - رضوان الله
عليهم - دُفن خارج الجزيرة العربية لأنهم انتشروا في الأرض دعاة إلى الله.

وإذا ذكرنا تجرد الصحابة للدعوة فلا ينبغي أن ننسى سفير الإسلام مصعب بن
عمير ذلك الفتى الذي حمل الدعوة إلى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى والتي كان
عدد الأنصار فيها اثنى عشر رجلا، وكان مصعب خير سفير للإسلام فقد تحرك
بالدعوة في جميع انحاء المدينة حتى دخل فيها الكثير. ففي بيعة العقبة الثانية أي
بعد عام من البيعة الأولى كان عدد الأنصار بضعاً وسبعين وحينما هاجر الرسول
ﷺ إلى المدينة لا يكاد التاريخ يذكر أن هناك بيتا في المدينة لم يدخله الإسلام،
كل ذلك بفضل الله أولاً ثم بحركة مصعب بن عمير بدعوته بين الناس.

---

(1) سبيل الدعوة الإسلامية لمحمد أمين المصري: (50، 51).
(2) المذكرة الدعاة للبهي الخولي: (35).

أن تكون منضبطة بتعاليم الطريق الذي

وحركة الأخ المسلم بالدعوة ينبغي ارتضى لنفسه السير فيه - والذي تحدثنا عنه في فصل العمل - فلا ينبغي له أن يتحرك بنصف طاقته مثلاً في هذا الطريق وبالنصف الثاني في طريق آخر بدعوى التسابق في فعل الخيرات فهذا من شأنه أن يجعل حركته غير مثمرة قال تعالى ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٩].

• وعلى الأخ المسلم ألا يجعل أموره المعيشية تسيطر على تفكيره فلا يستطيع بسبب انشغال ذهنه بها من التجرد لدعوته بصورة صحيحة، ولقد رأينا توجيه الرسول ﷺ لنا بعدم الصلاة بحضرة الطعام حتى لا يكون الذهن منشغلاً به ومنصرفاً عن الخشوع في الصلاة فلا يتم تحصيل مقاصد الصلاة وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «غزا نبي من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بُضع امرأة وهو يريد أن يبني بها ولم يبن بها، ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنما أو خلفات وهو ينتظر أولادها...» الحديث.

وخلاصة القول أن على الأخ المسلم أن يتجرد لله في كل أحواله فحياته وموته، ونومه ويقظته حركاته وسكناته وصلاته وسائر عباداته ينبغي أن تكون لله مصدقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

فإن رأيت العلماء رأيته معهم، وإن رأيت العباد رأيته معهم، وإن رأيت المجاهدين رأيته معهم، فهو لله وبالله ومع الله، قد صحب الله بلا خلق، وصحب الناس بلا نفس، وصحب النفس بالمجاهدة.

* * *

الفصل السابع

التضحيـــة

يقول صهيب:

لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش: يا صهيب قدمت إلينا ولا مال لك وتخرج ومالك والله لا يكون ذلك أبدا، فقلت لهم: أرأيت إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: ربح صهيب، ربح صهيب مرتين وفيه وأمثاله نزلت الآية:

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٠٧].

التضحيـة

التضحية دليل التجرد:

ذكرنا في معنى التجرد أن يجرد كل منا قلبه من حب الدنيا وحظ النفس وأن يجعله مجردا لحب الله ولدعوته وللجهاد في سبيله. والدليل العملي على صدق التجرد لله عز وجل هو التضحية في سبيله كما كان حال أبينا إبراهيم عليه السلام عندما أمر بذبح ابنه إسماعيل عليه السلام، فانصاع للأمر حبًا في الله وطاعة لأوامره قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾.

[الصافات: ١٠٢ – ١٠٩]

وكما كان كذلك حال الرسول ﷺ وصحابته الكرام عندما تركوا ديارهم وأوطانهم وأموالهم وأهليهم وخرجوا إلى المدينة فارين بدينهم من أجل رضا الله.

فعلى كل منا أن يكون مستعداً للتضحية بكل شيء في سبيل دينه من نفس ومال ومنصب وأهل وعشيرة وأن يقدم دائما مصلحة الدين على مصالحه الشخصية إذا ما حدث بينهما تعارض.

يقول تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة: ٢٤].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «وضع الله، كل الوشائج والمطامع واللذائذ في كفة وفي الكفة الأخرى العقيدة ومقتضياتها من حب الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ الجهاد بكل مقتضياته وبكل مشاقه، والجهاد وما يتبعه من تعب ونصب وتضييق وحرمان وألم وتضحية وجراح واستشهاد.... جهاد مجرد من الصيت والذكر والظهور، مجرد من المباهاة والفخر والخيلاء... مجرد من إحساس أهل الأرض به وإشارتهم إليه وإشادتهم به.

ألا إنها لكبيرة.. ألا إنها لشاقة ولكنها هي ذاك وإلا فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين، ولم يكلف الله الفئة المؤمنة هذا التكليف، إلا وهو يعلم أن فطرتها تطيقه، فالله لا يكلف نفساً إلا وسعها وإنه لمن رحمة الله بعباده أن أودع فطرتهم هذه الطاقة العالية من التجرد والاحتمال وأودع فيهم الشعور بلذة علوية لذلك التجرد لا تعدلها لذائذ الأرض كلها.. لذة الشعور بالاتصال بالله ولذة الرجاء في رضوان الله ولذة الاستعلاء على الضعف والهبوط والخلاص من ثقلة اللحم والدم والارتفاع إلى الأفق المشرق الوضيء.. وليس المطلوب أن ينقطع المسلم من الأهل والعشيرة والزوج والولد والمال والعمل والمتاع واللذة ولا أن يترهبن ويزهد في طيبات الحياة.. كلا إنما تريد هذه العقيدة أن يخلص لها القلب ويخلص لها الحب وأن تكون هي المسيطرة والحاكمة وهي المحركة والدافعة فإذا تم لها هذا فلا حرج عندئذ أن يستمتع المسلم بكل طيبات الحياة على أن يكون مستعداً لنبذها كلها في اللحظة التي تتعارض مع مطالب العقيدة»[١].

لا راحة للمؤمن في الدنيا:

إننا في هذه الدنيا غرباء، أسرى فهي سجن لنا، يقول ﷺ: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[٢].

---

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٦١٥، ١٦١٦).

(٢) أخرجه مسلم في أول كتاب الزهد في أبي هريرة: (٢٩٥٦).

فلنضح في سبيل دعوتنا بالغالي والرخيص، لا نرضى لانفسنا ان نكون مع الخوالف.

يقول تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٩٣].

إن هؤلاء الخوالف قد أغلق الله فيهم منافذ الشعور والعلم، وعطل فيهم أجهزة الاستقبال والإدراك، بما ارتضوه هم لانفسهم من الخمول والبلادة والوخم، والاحتجاب عن مزاولة النشاط الحركي الحي المتفتح المنطلق الوثاب، وما يؤثر الإنسان السلامة الذليلة والراحة البليدة إلا وقد فرغت نفسه من دوافع التطلع والتذوق والتجربة والمعرفة، وإن بلادة الراحة لتغلق المنافذ والمشاعر، وتطبع على القلوب والعقول، والحركة دليل الحياة، ومواجهة الخطر تستثير كوامن النفس وطاقات العمل، وتشد العضلات، وتكشف عن الاستعدادات المخبوءة التي تنتفض عند الحاجة، وتدرب الطاقات البشرية على العمل وتشحذها للتلبية والاستجابة.. وكل أولئك ألوان العلم والمعرفة والتفتح يحرمها طلاب الراحة البليدة والسلامة الذليلة[1].

من صور التضحية:

ومن هنا نقول إنه لا جهاد بدون تضحية، فمن ظن أنه يستطيع أن يجاهد في سبيل الله دون تضحية بمال أو وقت أو نفس أو.. فقد خاب ظنه وأخطأ في حساباته.

وصور التضحية كثيرة: منها التضحية بالمال وإنفاقه في سبيل الله، ومنها هجرة الديار والأوطان، ومنها التضحية بالجاه والمنصب وفراق الأهل والعشيرة.

ومنها التضحية بالنفس وبذلها رخيصة في سبيل الله، فهذا صهيب الرومي يقول: لما أردت الهجرة من مكة إلى النبي ﷺ قالت لي قريش يا صهيب قدمت

---

(١) في ظلال القرآن. المجلد الثالث: ١٦٩٥.

إلينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك، والله لا يكون ذلك أبداً، فقلت لهم: أرأيتم إن دفعت إليكم مالي تخلون عني؟ قالوا: نعم. فدفعت إليهم مالي فخلوا عني فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: **ربح صهيب ربح صهيب** مرتين. وفيه «وفي أمثاله» نزلت الآية[1]: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ**﴾ [البقرة: ٢٠٧].

وهذا الصحابي الجليل: ضمرة بن جندب حين استمع إلى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا**﴾ [النساء: ٩٧، ٩٨].

فحين استمع لهذه الآيات وكان بمكة لم يهاجر بعد وكان مسنا لا يقوى على احتمال السفر قال لبنيه: احملوني فإني لست من المستضعفين وإني لاهتدى إلى الطريق والله لا أبيت الليلة بمكة فحملوه على سرير متوجهاً إلى المدينة فمات بالتنعيم، ولما أدركه الموت أخذ يصفق بيمنه على شماله ثم قال: **اللهم هذه لك وهذه لرسولك أبايعك على ما بايعك عليه رسولك فمات حميداً** فلما بلغ خبره أصحاب النبي ﷺ فقالوا: لو توفى بالمدينة لكان أتم أجراً. وقال المشركون وهم يضحكون ما أدرك هذا ما طلب. فنزلت الآية[2]: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾.

[النساء: ١٠٠]

وخرج يوماً مصعب بن عمير على بعض المسلمين وهم جلوس حول

---

١) مختصر تفسير ابن كثير: ١/ ١٨٥.

٢) من فقه الهجرة: ٢٢، ٢٣.

رسول الله ﷺ فما إن بصروا به حتى حنوا رءوسهم وغضوا أبصارهم وذرفت بعض عيونهم دمعاً شجياً، ذلك أنهم رأوه يرتدي جلباباً مرقعاً بالياً، وعاودتهم صورته الأولى قبل إسلامه، حيث كانت ثيابه كزهور الحديقة نضرة وعطراً، وتملى رسول الله ﷺ مشهده وقال: لقد رأيت مصعباً هذا، وما بمكة فتى أنعم عند أبويه منه ثم ترك ذلك كله حباً لله ورسوله(1).

يقول خباب بن الأرت: هاجرنا مع رسول الله ﷺ نلتمس وجه الله فوقع أجرنا على الله فمنا من مات لم يأكل من أجره شيئاً منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد فلم نجد ما نكفنه به إلا بردة إذا غطينا بها رأسه خرجت رجلاه وإذا غطينا رجليه خرج رأسه فأمرنا رسول الله ﷺ أن نغطي رأسه وأن نجعل على رجليه من الإذخر ومنا من أينعت له ثمرته فهو يهدبها(2).

وأخرج ابن إسحاق عن أسماء رضي الله عنها قالت: لما خرج رسول الله ﷺ وخرج أبو بكر رضي الله عنه معه احتمل أبو بكر ماله كله معه خمسة آلاف درهم أو ستة آلاف فانطلق بها معه قالت: فدخل علينا جدي أبو قحافة رضي الله عنه وقد ذهب بصره فقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: قلت كلا يا أبت! إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: وأخذت أحجاراً فوضعتها في كوة في البيت الذي كان أبي يضع ماله فيها ثم وضعت عليها ثوباً ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال. قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم؛ ولا والله! ما ترك لنا شيئاً ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك(3).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ

---

(1) رجال حول الرسول: (45، 46).

(2) رواه البخاري ومسلم والترمذي وأبو داود باختصار.

(3) حياة الصحابة: 2 / 151. أخرجه أحمد والطبراني بنحوه.

الله قرضاً حسناً﴾ [البقرة: ٢٤٥]. قال أبو الدحداح رضي الله عنه يا رسول الله إن الله يريد منا القرض؟ قال: «نعم يا أبا الدحداح» قال: أرنا يدك، قال: فناوله يده. قال: قد أقرضت ربي حائطي، وحائطه فيه ستمائة نخلة، فجاء يمشي حتى أتى الحائط وأم الدحداح فيها وعيالها فنادى يا أم الدحداح! قالت لبيك! قال: اخرجي فقد أقرضته ربي(١).

وعن زياد بن السكن أن رسول الله ﷺ لما لحمه القتال يومئذ - يعني يوم أحد - وخلص إليه، وكان رسول الله ﷺ قد ثقل وظاهر بيده درعين يومئذ ودنا منه العدو فذب عنه مصعب بن عمير حتى قتل، وأبو دجانة سماك بن خرشة حتى كثرت فيه الجراح، وأصيب وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وكلمت شفته وأصيبت وجنته، فقال عند ذلك من رجل يبيع لنا نفسه؟ فوثب فتية من الأنصار خمسة، فيهم زياد بن السكن فقتلوا حتى كان آخرهم زياد بن السكن، فقاتل حتى أثبت، ثم ثاب إليه ناس من المسلمين، فقاتلوا عنه حتى أجهضوا عنه العدو فقال رسول الله ﷺ: أدن مني، وقد أثغبته الجراحة، فوسده رسول الله ﷺ قدمه حتى مات عليها وهو زياد بن السكن(٢).

لا جهاد بغير تضحية:

إن دعوتنا تأبى أن تكون مجمعاً للكسالى يتغنون بالإسلام ولا يخطون خطوة وراء ذلك.. نعم.. دعوتنا دعوة الإسلام دعوة الشهداء دعوة أولئك الذين صعدوا المشانق فدقت أعناقهم وانشقت أجسامهم، كيف يكون فيها من ليس همه أبعد من الزوجة والأولاد وبناء البيت وجعل الألف ألفين وعشرة آلاف(٣).

إنك يا أخي صاحب دعوة ويراد منك أن تنشئ أمة وتبني دولة، والأمم لا تقام بالتهريج ولا بفضلات الجهود، يراد منك أن تجاهد لإعلاء مبادئ الدعوة باذلاً في

---

(١) حياة الصحابة: ٢/ ١٤٩. قال الهيثمي: رواه أبو يعلى والطبراني ورجالهما ثقات.

(٢) كتاب الجهاد لعبد الله بن المبارك: ١٠.

(٣) ثمرات التربية الإسلامية: ٨١، ٨٢.

بيعها مالك وراحتك ووقتك ومواهبك ودمك[1].

من مقتضيات التضحية:

يقول رسول الله ﷺ: «اخشوشنوا فإن النعمة لا تدوم»[2].

وعلى الأخ المسلم أن يعود نفسه على الحياة الخشنة فيقلل من التنعم بالدنيا حتى يتمكن من الصبر على تكاليف الطريق.

عن أبي موسى رضي الله عنه: لو رأيتنا ونحن مع نبينا ﷺ لحسبت أنما ريحنا ريح الضأن إنما لباسنا الصوف وطعامنا الأسودان التمر والماء[3].

وعن أبي طلحة رضي الله عنه قال: شكونا إلى رسول الله ﷺ الجوع ورفعنا عن حجر حجر علي بطوننا فرفع رسول الله ﷺ عن حجرين[4].

وعن محمد بن سيرين قال: كان الرجل من أصحاب النبي ﷺ يأتي عليه ثلاثة أيام لا يجد شيئاً يأكله فيأخذ الجلدة فيشويها فيأكلها فإذا لم يجد شيئاً أخذ حجراً فشد صلبه[5].

فلا بد من تربية الجنود على حمل المشاق والتعرض للصعاب، ومواجهة الأخطار لتقوى عزيمتهم ويشتد عودهم ويعظم صبرهم وتصلب إرادتهم.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا

---

(1) ثمرات التربية الإسلامية: ٨١، ٨٢.

(2) ورد بلفظ تمعددوا واخشوشنوا قال الهيثمي رواه الطبراني في الكبير والأوسط وفيه عبد الله بن سعيد بن أبي سعيد المقبري وهو ضعيف.

(3) رواه الطبراني في الأوسط ورواته رواة الصحيح.

(4) رواه الترمذي.

(5) رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الجوع بإسناد جيد: «كذا في الترغيب».

منه إلا قليلاً منهم﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فطالوت مقدم علي معركة ومعه جيش من امة مغلوبة عرفت الهزيمة والذل في تاريخها مرة بعد مرة وهو يواجه امة غالبة فلا بد إذن من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف به امام القوى الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة، الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستعلى على الضرورات والحاجات، وتؤثر الطاعة وتحتمل تكاليفها فتجتاز الابتلاء بعد الابتلاء.. فلا بد للقائد المختار إذن أن يختبر جيشه، وصموده وصبره: صموده أولاً للرغبات والشهوات، وصبره ثانياً على الحرمان والمتاعب.. واختار هذه التجربة وهم كما تقول الروايات عطاش ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه ويؤثر العافية. وصحت فراسته[1] ﴿فشربوا منه إلا قليلاً منهم﴾.

أهمية التربية على أخلاق المجاهد:

يقول تعالى: ﴿ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين﴾ [البقرة: ١٥٥].

فلا بد من تربية النفوس علي البلاء ومن امتحان التصميم على معركة الحق بالمخاوف والشدائد، وبالجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات.. لا بد من هذا البلاء ليؤدى المؤمنين تكاليف العقيدة، كي تعز على نفوسهم بمقدار ما أدوا في سبيلها من تكاليف.. **والعقائد الرخيصة التي لا يؤدي أصحابها تكاليفها لا يعز عليهم التخلي عنها عند الصدمة الأولى**... فالتكاليف هنا هي الثمن النفسي الذي تعز به العقيدة في نفوس أهلها قبل أن تعز في نفوس الآخرين وكلما تألموا في سبيلها، وكلما بذلوا من أجلها كانت أعز عليهم، وكانوا أضن بها[2] وهذا هو ما ربى عليه رسولنا ﷺ أصحابه، رباهم علي أن يكون زادهم من الدنيا أقل القليل،

---

(١) في ظلال القرآن: ١/ ٢٦٨.

(٢) في ظلال القرآن: ١/ ١٤٥.

قال ﷺ: «إنما يكفي أحدكم من الدنيا كزاد الراكب»(١).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: بعثنا رسول الله ﷺ وأمّر علينا أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه نتلقى عيراً لقريش وزودنا جراباً من تمر لم يجد لنا غيره فقيل له: كيف كنتم تصنعون بها، قال: نمصها كما يمص الصبي ثم نشرب عليها من الماء فتكفينا يومنا إلى الليل وكنا نضرب بعصيّنا الخَبَط ثم نبله فنأكله(٢).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه أصابهم جوع وهم سبعة قال فأعطاني النبي ﷺ سبع تمرات لكل إنسان تمرة(٣).

وعن أبي موسى الأشعري قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزاة ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، قال: فنقبت أقدامنا فنقبت قدماي وسقطت أظافري فكنا نلف على أرجلنا الخِرَق فسميت غزوة ذات الرقاع لما كان نعصب على أرجلنا من الخرق، قال أبو بردة: فحدث أبو موسى بهذا الحديث ثم كره ذلك، قال: كأنه كره أن يكون شيئاً من عمله أفشاه(٤).

لا بد أن يفطم الأخ المسلم نفسه عن الدنيا، فأنّى لإنسان عاش فيها وأسرف في تناول مظاهر نعيمها أن يصبر على تكاليف الطريق.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول بلاء حدث في هذه الأمة بعد نبيها الشبع فإن القوم لما شبعت بطونهم سمنت أبدانهم فضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم.

وعن الحسن قال: دخل عمر على ابنه عبد الله رضي الله عنهما وإن عنده لحماً قال: ما هذا اللحم؟ قال: اشتهيته، قال: أو كلما اشتهيت شيئاً أكلته؟ كفى

---

(١) رواه الطبراني عن خباب وابن ماجة في الزهد وأحمد بنحوه.

(٢) رواه مسلم، والخَبَط: ما سقط من ورق الشجر بالخَبْط، والنفض.

(٣) رواه ابن ماجة بإسناد حسن.

(٤) رواه مسلم.

بالمرء سرفًا أن يأكل كل ما اشتهاه»[1].

عن ابن عمر قال: بلغ عمر بن الخطاب أن يزيد بن أبي سفيان رضي الله عنهما يأكل ألوان الطعام فقال لمولى له يقال برفا: إذا علمت أنه قد حضر طعامه فأعلمني فلما حضر غداؤه جاء فأعلمه فأتى عمر فسلم واستأذن فأذن له فدخل فجاءه بلحم فأكل عمر معه منه، ثم قرب شواء فبسط يده وكف عمر يده ثم قال عمر: الله يا يزيد بن أبي سفيان: أطعام بعد طعام والذي نفس عمر بيده لئن خالفتم عن سنتهم ليخالفن بكم عن طريقهم[2].

والموعد الجنة:

ولقد وعد الله عباده المؤمنين أنه من يترك شيئا من الدنيا حبا لله وخشية منه فإنه سيعوضه عن ذلك في الجنة بما لم يخطر على قلب بشر ففي الصحيحين من حديث البراء قال: أهدى لرسول الله ﷺ ثوب حرير، فجعلوا يعجبون من لينه، فقال رسول الله ﷺ: «**لا تعجبون من هذا؟ لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن من هذا**»[3].

ويقول ابن القيم: إن أكمل الناس في اليوم الآخر أصونهم لنفسه في هذه الدار عن الحرام، فكما أن من شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة، ومن لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة، ومن أكل في صحاف الذهب والفضة في الدنيا لم يأكل فيها في الآخرة كما قال النبي ﷺ: «**إنها لهم في الدنيا ولكم في الآخرة**».

فمن استوفى طيباته ولذاته وأذهبها في هذه الدار حرمها هناك كما نعى سبحانه على من أذهب طيباته في الدنيا، واستمتع بها، ولهذا كان الصحابة ومن

---

(1) تاريخ عمر بن الخطاب: ٢٠٢.

(2) المصدر السابق: ٢٠٦.

(3) رواه البخاري ومسلم.

يهم يخافون من ذلك أشد الخوف(١).

وأخيراً فإن خير ما نختم به هذا الفصل حادثة حدثت لمجموعة من الصحابة بيّن لنا كيف كان حجم الدنيا بالنسبة إليهم وكيف كانوا لا يعلمون عنها إلا النذر اليسير.

أخرج الطبراني ورواته رواة الصحيح عن أبي برزة رضي الله عنه قال: كنا في غزاة لنا فلقينا أناساً من المشركين فأجهضناهم عن ملة لهم(٢)، فوقعنا فيها فجعلنا نأكل منها وكنا نسمع في الجاهلية أنه من أكل الخبز سمن فلما أكلنا ذلك الخبز جعل أحدنا ينظر في عطفيه هل سمن(٣).

* * *

(١) حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح: ٢٢٦.

(٢) أجهضناهم عن ملة: أبعدناهم عن الرمال الحارة التي تحمى فيدفن فيها الخبز لكي ينضج.

(٣) رواه الطبراني ورواته رواة الصحيح «كذا في الترغيب».

الفصل الثامن

الجهـــاد

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله: قال: «لا تستطيعون» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعون» ثم قل: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله».

متفق عليه

الفصل الثامن

الجهـاد

معنى الجهاد:

«الجهاد في اللغة هو المبالغة واستفراغ ما في الوسع والطاقة من قول أو فعل»[1].

وفي الاصطلاح الشرعي: بذل المسلم طاقته وجهده في نصرة الإسلام ابتغاء مرضاة الله، ولهذا قيد الجهاد في الإسلام بأنه في سبيل الله ليدل على هذا المعنى الضروري لتحقق الجهاد الشرعي.

وبهذا جاءت الآيات القرآنية معلنة أن جهاد المسلمين ومنه القتال، إنما هو جهاد في سبيل الله بخلاف الكافرين فإن جهادهم وقتالهم في غير سبيل الله، أي في سبيل الشيطان[2].

﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٧٦].

وفي هذا الإطار الذي تحدثنا فيه تأتي تعريفات السلف لمعنى الجهاد.

قال ابن عباس رضي الله عنهما يقول: هو استفراغ الطاقة فيه وألا يخاف في الله لومة لائم.

وقال مقاتل: اعملوا لله حق عمله، واعبدوه حق عبادته.

قال عبد الله بن المبارك: هو مجاهدة النفس والهوى[3].

---

(١) لسان العرب: ١ / ٧١.

(٢) أصول الدعوة: ٢٧٢.

(٣) زاد المعاد: ٣ / ٨.

ويقول الأستاذ سعيد الحوطي: الجهاد هو بذل الجهد في سبيل إعلاء كلمة الله والقتال نوع من أنواعه وأما غايته فهي إقامة المجتمع الإسلامي وتكوين الدولة الإسلامية الصحيحة»[1].

منزلة الجهاد:

والجهاد في سبيل الله في أعلى المنازل وأسماها بعد الإيمان بالله.

قال تعالى: ﴿انفروا خفافًا وثقالًا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ [التوبة: ٤١].

وقال تعالى: ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدًا عليه حقًا في التوراة والإنجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١١١].

ويقول عز وجل: ﴿إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾. [الحجرات: ١٥]

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله: قال: «لا تستطيعون» فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثًا، كل ذلك يقول: «لا تستطيعون» ثم قال: «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القائم القانت بآيات الله، لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع المجاهد في سبيل الله»[2].

يقول الإمام النووي في شرح هذا الحديث:

في هذا الحديث عظيم فضل الجهاد، لأن الصلاة والصيام والقيام بآيات الله تعالى أفضل الأعمال وقد جعل المجاهد مثل من لا يفتر عن ذلك في لحظة من

---

(١) مفاهيم تربوية: ٦٣.

(٢) رواه البخاري: ٢٧٨٧، ومسلم: ١٨٧٨.

اللحظات، ومعلوم ان هذا لا يتاتى لاحد، لهذا قال ﷺ «ولا تستطيعون»(1).

وعن ابي هريرة رضي الله عنه قال: مر رجل من أصحاب النبي ﷺ بشعب - هو ما انفرج بين جبلين - فيه عيينة - تصغير عين - من ماء عذبة فاعجبته لطيبها، فقال: لو اعتزلت الناس فاقمت في هذا الشعب، ولن افعل حتى أستاذن رسول الله ﷺ فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فقال: «**لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله افضل من صلاته في بيته سبعين عاماً، الا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة؟ اغزوا في سبيل الله، من قاتل في سبيل الله فواق الناقة - هو ما بين الحلبتين من الوقت - وجبت له الجنة**»(2).

وعنه رضي الله عنه ان رجلاً قال: يا رسول الله دلني على عمل يعدل الجهاد؟ قال: «**لا أجده**».

ثم قال: «**هل تستطيع إذاخرج المجاهد أن تدخل مسجدك فتقوم ولا تفتر، وتصوم ولا تفطر**»؟ فقال: ومن يستطيع ذلك!(3).

قال العلامة ابن حجر: هذه فضيلة ظاهرة للمجاهدين في سبيل الله، تقتضي الا يعدل الجهاد شيء من الاعمال، قال عياض: اشتمل الحديث على تعظيم أمر الجهاد، لان الصيام وغيره مما ذكر من فضائل الاعمال قد عدلها كلها، حتى صارت جميع حالات المجاهد وتصرفاته المباحة معادلة لأجر المواظب على الصلاة وغيرها(4).

أنواعه ووجوبه(5):

الجهاد - في سبيل الله - أنواع، فهناك الجهاد باللسان ببيان شرائع الإسلام

---

(1) شرح النووي: (8/79).

(2) رواه الترمذي: (1650). وقال هذا حديث حسن.

(3) رواهاالبخير: 2785). ومسلم: (1878).

(4) فتح الباري: (6/5).

(5) أصول الدعوة: 272- 275.

ودحض الأباطيل المفتراة على الإسلام، والجهاد بالمال بإنفاقه في وجوه البر، لا سيما على المجاهدين والمقاتلين في سبيل الله بشراء العتاد والسلاح والأرزاق لهم، والجهاد بالنفس بمقاتلة أعداء الله.

وإذا أطلق الجهاد فإنه يراد به - غالباً - الجهاد بالنفس أي القتال كما أن الجهاد بالنفس يقرن غالباً بالجهاد بالمال كما نلاحظ ذلك في آيات القرآن الكريم من ذلك قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠ - ١٣].

والجهاد بالنفس بمقاتلة الأعداء من فروض الكفاية في الأحوال الاعتيادية إذا حصلت به الكفاية ولكنه يصير فرض عين إذا احتل الكفرة بلداً من بلاد الإسلام أو إذا استنفر الإمام المسلمين.

قال الإمام ابن العربي المالكي: إذا كان النفير عاماً لغلبة العدو على الحوزة أو استيلائه على الأسارى كان النفير عاماً ووجب الخروج خفافاً وثقالاً وركباناً ورجالاً عبيداً وأحراراً، من كان له أب من غير إذنه حتى يظهر دين الله وتحمى البيضة وتحفظ الحوزة، ويخزي الله العدو ويستنقذ الأسرى، ولا خلاف في هذا.

ولما كان الجهاد من فروض الإسلام فقد عظمت به الوصية، وأمر الله تعالى بأخذ العدة اللازمة له قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فكل ما به قوة وحاجة في القتال وجب تحصيله وإعداده، وهذا يختلف باختلاف الأزمان والأحوال ولا شك أن من وسائل القوة المهمة في زماننا تعلم

وإتقان مختلف العلوم والفنون والصناعات اللازمة لإعداد القتال وتعلم هذه الأمور من الفروض الكفائية في الأمة، لأن ما لم يتم الواجب إلا به فهو واجب ومن المستحب لكل مسلم أن يتعلم ما يستطيعه من أمور القتال، كالرمي والطعن مبتغيا بذلك وجه الله تعالى ويعلمه للآخرين، وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذه الأمور فقال رحمه الله: وتعلم هذه الصناعة ـ أي صناعات الحرب وآلات القتال ـ هو من الأعمال الصالحة لمن يبتغي بذلك وجه الله عز وجل فمن علّم غيره ذلك كان شريكه في كل جهاد به لا ينقص أحدهما من الأجر شيئا، وكان سيدنا عمر رضي الله عنه يوصي المسلمين وولاتهم «أن علموا أولادكم الرمي والفروسية» وفي حديث عن النبي ﷺ: «... من علّم الرمي ثم تركه فليس منا أو فقد عصى»[1].

والواقع أن الجهاد ضروري لبقاء المسلمين أمة قوية مرهوبة الجانب بعيدة عن أطماع الطامعين والحاقدين من الكافرين والمنافقين، كما أن الجهاد بنفسه دليل قاطع على إيمان المسلم ومبادرته إلى ما يحبه الله تعالى وإيثاره مرضاته وما عنده ولهذا وبخ الله تعالى من يتقاعس عن الجهاد قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل﴾ [التوبة: ٣٨].

وترك الجهاد سبب للمذلة والهوان وضياع الديار وتسلط الكفرة على بلاد الإسلام، وهذا من العذاب الذي توعد به الله تعالى تاركي الجهاد، قال ربنا في القرآن الكريم: ﴿إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير﴾ [التوبة: ٣٩]

قال الإمام ابن العربي المالكي في تفسيره: في هذه الآية تهديد شديد ووعيد مؤكد في ترك النفير والخروج إلى الكفار لمقاتلتهم على أن تكون كلمة الله هي

---

[1] مسلم: ١٩١٩.

العليا، أما نوع العذاب فقال عنه الإمام ابن العربي: هو الذي في الدنيا باستيلاء العدو على من يستولي عليه، وبالنار في الآخرة ووقائع التاريخ القديم والحديث تؤيد ما ذكره ابن العربي، إذا أصاب المسلمين من ذلك وتسلط الكفرة عليهم لم يكن إلا بتركهم الجهاد المطلوب منهم.

الإسلام دعوة جهادية:

من صفات الإسلام الرئيسة أنه دعوة جهادية ماضية في مواجهة الباطل وإحقاق الحق إلى أن تقوم الساعة.. وصدق الله تعالى حيث يقول: ﴿وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله﴾ [الأنفال: ٣٩].

ومن طبيعته أن يرفض كل الحلول المطروحة المخالفة لمنهج الإسلام ويعتبرها مشكلات وليست بحلول، فهو لا يقبل مع الإسلام منهجاً غير منهجه، ولا ديناً غير دينه، ولا شريعة غير شريعته.

﴿إن الدين عند الله الإسلام﴾ [آل عمران: ١٩]. ﴿ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ [آل عمران: ٨٥].

ومن طبيعته أنه يجعل التشريع حقاً لله وحده، ولا يقبل بالاحتكام لغير شرع الله ولهذا فهو يرفض التشريعات الوضعية جميعاً: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تولوا فاعلم أنما يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم وإن كثيراً من الناس لفاسقون (٤٩) أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون﴾. [المائدة: ٤٩، ٥٠]

ومن طبيعته أنه لا يرضى لأتباعه الدنية في شيء، ولا يقبل لهم الذل والهوان في أمر ﴿ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين﴾ [المنافقون: ٨]. ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾ [الفتح: ٢٩] ثم إن الإسلام يعتبر

---

(١) تحديات التصور الحركي للعمل الإسلامي: ٨٥، ٨٦.

الجهاد طريق المؤمنين إلى الجنة وسبيلهم إلى مرضاة الله تعالى والتخلص مما يورث الذل والخنوع والهوان، فقال رسول الله ﷺ: **«واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»**(1).

والجماعة المسلمة في أي مكان قامت وفي أي زمان كانت حركة جهادية هدفها الأصيل تعبيد الناس لله تعالى وجعل الحاكمية والقوامة لشريعته، فكتاب الله يصف الجماعة المسلمة بقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

[الحجرات: 15]

ورسول الله ﷺ يصف الجماعة المسلمة فيقول: **«لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»**(2).

والمسلمون الأولون عرفوا أنهم أمة جهاد فقاتلوا مجاهدين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله، يقولون الحق، ويأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويقيمون العدل، ولا يخشون في الله لومة لائم.

لم يكونوا ليرهبوا سطوة حاكم، وسوط جلاد، وحبل مشنقة، بل إنهم يستعذبونه في سبيل الله ولسان حالهم جميعًا ما نطق به الرسول ﷺ في قلب المحنة: **«إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي»**.

لم تكن الجماعة المسلمة تعيش معزولة عن دنيا الناس وصراعاتهم في أجواء الرياضة الروحية، لا تدري ما يجري حولها من كيد للإسلام، وتآمر عليه، وتشويه لشخصيته واستئصال لوجوده، ولهذا غضب رسول الله ﷺ حين جيء برجل أتى جبلاً يتعبد فيه وقال له: **«لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله أفضل من صلاته في بيته سبعين عامًا..»**(3).

---

(1) رواه البخاري ومسلم.

(2) متفق عليه.

(3) رواه الترمذي وقال: هذا حديث حسن.

التغيير الإسلامي وضرورة الجهاد[1]:

إن التغيير الإسلامي لا يمكن تحقيقه من غير جهاد، وبدون صياغة جيل مجاهد والمهمة العسيرة مهمة شاقة، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في عالمنا الإسلامي قوى شريرة، قد هيأها أعداء الإسلام لهذا الدور منذ زمن بعيد، هذه القوى تملك كل أسباب القهر والتنكيل والإبادة، ومعطى لها الضوء الأخضر من كل أعداء الإسلام في الداخل والخارج.

إن إزالة هذه القوى وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السهل الهين، فهي ستتشبث بمواقعها حتى النفس الأخير، إن ذلك يحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تخرج أنماطاً من المجاهدين، يحبون الموت كما يحب الناس الحياة، ويعيشون هم الإسلام وقضاياه ليلهم ونهارهم.

وصفوة القول: إنه لا بد من قاعدة صلبة متينة تستطيع أن تصمد في هذا الصراع الجبار وتقف في وجه المؤامرات وتجاهد في كل المجالات والجبهات وتدفع ثمن إقرار شريعة الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء الأبرار وتصبر على الظمأ والتعب والجوع وتغيظ الكفار بهذا العطاء الدائم، ولا تتخلف عن نداء الجهاد.

فطريق النصر هو طريق الآلام، أرضه أشواك وسماؤه عواصف وأخطار ومعالمه شهداء ورجاله: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣]. قاعدته الصوام القوام، الخاشعون المخبتون، رهبان بالليل فرسان بالنهار[2].

نموذج المجاهد:

ما أجمل وما أصدق ما قاله الإمام حسن البنا في وصف المؤمن الداعية المجاهد في سبيل الحق، يقول الإمام: **أستطيع أن أتصور المجاهد شخصاً قد أعد عدته، وأخذ أهبته، وقلب عليه الفكر فيما هو فيه نواصي نفسه وجوانب قلبه، فهو**

---

(١) تحديات التصور الحركي: ٨٧، ٨٨.

(٢) مفاهيم تربوية: ٦٣، ٦٤.

دائم التفكير عظيم الاهتمام على قدم الاستعداد أبداً إن دعي أجاب، أو نودي لبّى، غدوه ورواحه وحديثه وكلامه وجده ولعبه، لا يتعدى الميدان الذي أعد نفسه له، ولا يتناول سوى المهمة التي وقف عليها حياته وإرادته، يجاهد في سبيلها، تقرأ في قسمات وجهه وترى في بريق عينيه، وتسمع من فلتات لسانه ما يدلك على ما يضطرم في قلبه من جوى لاصق وسر دفين، وما تفيض به نفسه من عزمة صادقة وهمة عالية وغاية بعيدة.

ثم يقول في بيان صفات القاعد الذي عبد الدنيا وشغل بالدينار والدرهم:

أما المجاهد الذي ينام ملء جفنيه، ويأكل ملء ماضغيه، ويضحك ملء شدقيه، يقضي وقته لاهياً عابثاً ماجناً فهيهات أن يكون من الفائزين أو يكتب في عداد المجاهدين(١).

فضل الشهداء:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا وأن له ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، فإنه يتمنى أن يرجع إلى الدنيا فيقتل عشر مرات، لما يرى من الكرامة» وفي رواية: لما يرى من فضل الشهادة(٢).

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: رأيت الليلة

---

(١) مفاهيم تربوية: ١ / ٦٨.

(٢) رواه البخاري: ٢٨١٧. ومسلم: ١٨٧٧.

رجلين اتياني فصعدا بي الشجرة وادخلاني دارا هي احسن وافضل، لم ار قط احسن منها، قالا لي: اما هذه فدار الشهداء»(١).

وعن مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن هذه الآية: ﴿ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون﴾. [آل عمران: ١٦٩]

فقال: اما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربهم اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث نشاء، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من ان يسألوا قالوا: يارب نريد أن ترد أرواحنا في أجسامنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»(٢).

ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم في شوق شديد إلى الشهادة، وحنين دائم إلى الجنة واستهانة عجيبة بالحياة الدنيا.

فعن شداد بن الهادي رضي الله عنه: ان رجلاً من الاعراب جاء فآمن بالنبي ﷺ ثم قال: اهاجر معك، فاوصى به النبي ﷺ بعض اصحابه، فكانت غزاة غنم فيها النبي ﷺ شيئاً فقسم وقسم له، فقال: ما هذا؟ فقال: قسمته لك فقال: ما علي هذا اتبعتك، ولكني اتبعتك على أن أرمي إلى ههنا ـ وأشار بيده إلى حلقه ـ بسهم فأموت فأدخل الجنة، قال: إن تصدق الله يصدقك، فلبثوا قليلاً ثم نهضوا في قتال العدو فأتي به النبيْ محمولاً قد أصابه سهم حيث أشار، فقال النبي ﷺ: أهو هو قالوا: نعم، قال: صدق الله فصدقه، ثم كفن في جبة النبي ثم قدمه فصلى عليه، فكان مما ظهر من صلاته: «اللهم هذا عبدك خرج مهاجراً في

---

(١) رواه البخاري: ٢٧٩١.

(٢) مسلم: ١٨٧٧.

سبيلك فقتل شهيداً وأنا شهيد على ذلك»[1].

وعن أنس رضي الله عنه قال: انطلق رسول الله ﷺ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون فقال رسول الله ﷺ: «لا يقدمن أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه» فدنا المشركون، فقال رسول الله ﷺ: «قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض» قال عمير بن الحُمام: يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: «نعم». قال: بخ بخ. فقال رسول الله ﷺ: «ما يحملك على قولك بخ بخ؟ لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها، قال: فإنك من أهلها، فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال: إن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل رضي الله عنه»[2].

فهيا بنا ـ أخي الشاب على طريق الجهاد ـ هيا بنا نسأل الله عز وجل الشهادة بصدق ونعمل من أجلها، فعن سهل بن حنيف رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من سأل الله تعالى الشهادة بصدق بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه»[3].

وصايا للمجاهدين[4]:

يقول الأستاذ مصطفى مشهور: أيها الشباب على طريق الجهاد، تخفف من جواذب الأرض وأسباب الترف كي تستجيب لداعي الجهاد دون تثاقل، وإلا تعرضت إلى العذاب الأليم مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ

---

(1) رواه النسائي.

(2) رواه مسلم: ١٩٠١.

(3) رواه مسلم.

(4) الجهاد هو السبيل: ٥٣، ٦٦ بتصرف.

الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل (٣٨) إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شيء قدير ﴾.

[التوبة : ٣٨، ٣٩]

واعلم أخي الشاب المجاهد أن الله غني عنا وعن جهادنا، فنحن المحتاجون إلى ثواب الله ونعيمه ونيل هذا الشرف: ﴿ ومن جاهد فإنما يجاهد لنفسه إن الله لغني عن العالمين ﴾ [العنكبوت: ٦]. والله قادر على أن ينتصر على أعدائه دون جهادنا، ولكنه الابتلاء والامتحان: ﴿ ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ﴾ [محمد: ٤]. ﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ [محمد: ٣١].

أخي الشاب المسلم على طريق الجهاد، لا ترهب قوة أعداء الله لو كثرت عددا وعدة فالله ولي المؤمنين يمدهم بجنده ويؤيدهم بنصره ﴿ إن ينصركم الله فلا غالب لكم ﴾ [آل عمران: ١٦٠].

نحن أخي الشاب المجاهد في الحقيقة ستار لقدر الله ونصر الله، ولا حول لنا ولا قوة إلا بالله إنك تجد هذا المعنى واضحا في قول الله تعالى: ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾ [الأنفال: ١٧].

أخي الشاب المسلم المجاهد: ضع يدك في يد إخوانك المجاهدين، وارتبط معهم بقوة برباط الأخوة الصادقة في الله، لتكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا، فتفوزوا جميعا بحب الله ونصره مصداقا لقول الله: ﴿ إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص ﴾ [الصف: ٤].

وتمثل حال المجاهدين الأولين من الأنصار والمهاجرين وما كان بينهم من حب وأخوة وإيثار ضرب الله بها المثل في قرآنه الكريم: ﴿ والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ [الحشر: ٩].

أيها الشباب المسلم على طريق الجهاد، [illegible] للمؤمنين المجاهدين في هذا النداء الكريم: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون (٤٥) وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين﴾ [الأنفال: ٤٥، ٤٦].

هكذا يأمرنا الله بالثبات وذكر الله وطاعته وطاعة رسوله [illegible] الخلاف ثم بالصبر، وكلها من لوازم النصر [illegible].

فليكن همك يا أخي جمع الكلمة ووحدة الصف [illegible] ما يفرق صف المجاهدين، أو يفرق وحدتهم أو [illegible] على غير الأصوب خير من الافتراق على الأصوب [illegible] إلى الأصوب بعد ذلك.

أيها الشباب المسلم المجاهد، استعن بالله ولا تعجز، [illegible] وهكذا يوصينا رسولنا الحبيب ﷺ فيقول: «لا تتمنوا لقاء العدو، وسلوا الله العافية، فإذا لقيتموهم فاثبتوا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف»(١).

لا بد للمجاهد من الصبر والثبات فإن النصر مع الصبر، [illegible] والهزيمة صبر ساعة وصدق الله العظيم: ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

أخي الشاب المسلم المجاهد تقدم في صفوف المقاتلين في سبيل الله وكلك يقين أنك على موعد مع إحدى الحسنيين، النصر أو الشهادة، نصر يفرح به المؤمنون في أنحاء الأرض، أو شهادة تنال بها منازل الشهداء وثوابهم. ﴿ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما﴾ [النساء: ٧٤].

واعلم أخي الشاب المسلم المجاهد أننا مطالبون بالعمل [illegible]

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

النتائج فقد أمرنا الله بمجاهدة أعداء الله ورد عدوانهم ولم يطالبنا بتحقيق النصر فالنصر من عنده هو، ولذلك فلن يحرمنا الله أجر المجاهدين في سبيله ولو كانت النتيجة ظاهرياً أمام أعين الناس في غير صالح المؤمنين.

اعلم أخي الشاب المسلم في صف المجاهدين أنك هدف عظيم وصيد ثمين لأعداء الله لو حصلوا عليك، وليس ذلك بالقتل فقط، لكن لو استطاعوا أن يخدعوك أو يساوموك ويستميلوك إلى جانبهم بوعد أو وعيد فلا تمكنهم من نفسك، واعلم أن ما عند الله خير وأبقى وأنك على ثغرة من ثغور المسلمين، لا يؤتون من قبلك، وكن في موقعك خير حارس أو مقاتل أو مرابط، مستشعراً فضل الله عليك، أن منْ عليك بشرف الجهاد في سبيله، متذكراً الثواب العظيم ثواب الرباط أو الحراسة أو القتال في سبيل الله: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ [يونس: ٥٨]. كما تستشعر الخطرالعظيم والإثم الكبير بل والعذاب الشديد لو تخليت عن موقعك ومهمتك وسمحت لأعداء الله أن ينفذوا إلى صف المؤمنين.

أخي الشاب المسلم في صفوف المجاهدين، كن دقيقاً في عملك ووقتك وتنفيذ ما يطلب منك قربْ تأخير دقيقة أو تقصير بسيط في تنفيذ أمر يعرض أعداداً كبيرة في صفوف المجاهدين إلى الهلاك والقتل، أو يؤدي إلى سقوط موقع مهم في يد الأعداء.

أيها الشاب المسلم المجاهد في كل مكان عليك بكتاب الله، تدبره وأتله حق تلاوته، فهو الزاد الوافر على طريق الجهاد، وقف طويلاً عند السور والآيات التي تتناول الجهاد والقتال في سبيل الله، واحفظها لو استطعت فستزودك بكل ما تحتاجه في جهادك وقتالك لأعداء الله من زاد، واقرأ وتدبر سيرة إمام المجاهدين ﷺ وصحابته الغر الميامين، وما في الغزوات من صور رائعة للجهاد ونماذج فريدة للتضحية والفداء والحب والإيثار والإعداد والتخطيط.

وأخيراً يقول الإمام الشهيد حسن البنا:

إن الأمة التي تحسن صناعة الموت، وتعرف كيف تموت الموتة الشريفة، يهب لها الله الحياة العزيزة في الدنيا والنعيم الخالد في الآخرة، وما الوهن الذي أذلنا إلا حب الدنيا وكراهية الموت، فأعدوا أنفسكم لعمل عظيم واحرصوا على الموت توهب لكم الحياة واعلموا أن الموت لا بد منه وأنه لا يكون إلا مرة واحدة، فإن جعلتموها في سبيل الله كان ذلك ربح الدنيا وثواب الآخرة، وما يصيبكم إلا ما كتب الله لكم، فاعملوا للموتة الكريمة تظفروا بالسعادة الكاملة، رزقنا الله وإياكم كرامة الاستشهاد في سبيله[1].

* * *

---

(1) مجموعة الرسائل: ٢٦٤.

الفصل التاسع

الثبـــات

﴿من المؤمنين رجالٌ صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبهُ ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلاً﴾.

[الأحزاب: ٢٣]

الفصل التاسع

الثبات

يقول الله عز وجل: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٢٣].

فالثبات أحد تكاليف الإيمان، والإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر واحتمال، فلا يكفي أن يقول الناس آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم وخالصة قلوبهم[1].

الثبات قرين الصبر:

إن ثبات المرء في موقعه الإيماني والحركي يحتاج إلى صبر، والصبر ما هو إلا نتاج معركة الجهاد مع النفس، فمن انتصر على نفسه استطاع أن يُصَبّرها على طاعة الله وتحمل الأذى والبعد عن المعاصي ومن انتصرت عليه نفسه فما أبعده عن الصبر، فتراه جزعا، شاكيا، متسخطًا لا يصبر على شيء، ولذلك كان أجر الصابرين بغير حساب جزاء لما بذلوا من جهد في معركتهم مع نفوسهم ﴿ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [الزمر: ١٠]. فبالصبر يصل المرء إلى مراده.

صعوبة الثبات وسهولة التبديل:

يقول ابن القيم: ليس في الوجود شيء أصعب من الثبات والصبر إما عن المحبوب أو على المكروهات وخصوصاً إن امتد الزمان ووقع اليأس من الفرج، وتلك

---

(١) في ظلال القرآن: ٥ / ٢٧٢٠.

المدة تحتاج إلى زاد يقطع بها سفرها والزاد هنا: الثبات على حكم الله وقضائه وابتلائه.

إن الثبات على الحق حتى الممات أمر شاق جداً ولقد كان رسول الله ﷺ يكثر من دعاء «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك»(١).

يقول أحد الصالحين: لا تسأل عمن هلك كيف هلك ولكن اسأل عمن نجا كيف نجا.

ويقول آخر: إذا أردت أن تقتدي فاقتد بمن مات فإن الحي لا تؤمن بوائقه.

فلا يوجد مقياس لمن يبدل فلا السن ولا العلم ولا السبق لهم علاقة بالتبديل فقد يؤتى الرجل من قبل علمه أو سنه أو سبقه أو...

«فبلعام» كما يقول المفسرون كان يحسن اسم الله الأعظم.

﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥، ١٧٦].

بل وإبليس - لعنه الله - أتي من قبل عبادته وظن أنه خير من آدم: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

وقد يؤتى الرجل نتيجة قلة تحمله وصبره على تكاليف الطريق كما حدث من جنود طالوت، وقد يؤتى الرجل نتيجة خلوده إلى الدنيا وتمرغه في شهواتها فيثاقل إلى الأرض ويتبع هواه.

وقد يؤتى الرجل من قبل أشياء أخرى كثيرة لذلك «لا تسأل عمن هلك كيف هلك ولكن اسأل عمن نجا كيف نجا».

---

(١) أخرجه الترمذي قال: حديث حسن.

ولقد كان رسول الله ﷺ يُخبر بأن أناساً تركوا الإسلام والمدينة فيقول: «إن المدينة تنفي خبثها كما ينفي الكير خبث الحديد».

وفي غزوة تبوك تحكي لنا السيرة هذه المواقف:

مضى رسول الله ﷺ سائراً، فجعل يتخلف عنه الرجل، فيقولون: يا رسول الله تخلف فلان! فيقول: دعوه فإن يك فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه[1].

إنه أمر مقطوع به عند رسول الله ﷺ فإن كان لا يزال في فلان خير فلا بد وأن يأتي وإن انتهى خيره فلا ينبغي أن نحزن عليه، لدرجة أنه عندما أخبر بتخلف أبي ذر وأبو ذر كما تعلم من السابقين الأولين أجاب بنفس الإجابة «حتى قيل: يا رسول الله قد تخلف أبو ذر وأبطأ بعيره فقال دعوه فإن يكن فيه خير فسيلحقه الله بكم وإن يك غير ذلك فقد أراحكم الله منه».

مع ذلك فالرسول كان يتمنى ألا يكون أبو ذر مع الخوالف فعندما قال له أحد المسلمين: يا رسول الله إن هذا الرجل يمشي على الطريق وحده، فقال رسول الله ﷺ: كن أبا ذر فلما تأمله القوم قالوا يا رسول الله: هو والله أبو ذر، فالكل مشتاق للحاق أبي ذر بهم وعندما رآه ﷺ قال: رحم الله أبا ذر يمشي وحده ويموت وحده ويبعث يوم القيامة وحده[2].

بل إن الله عز وجل يمتن على رسوله ﷺ أنه ثبته على ما أوحى إليه وعصمه من فتنة المشركين ووقاه الركون إليهم - ولو قليلاً - ورحمه من عاقبة هذا الركون وهي عذاب الدنيا والآخرة مضاعفاً وفقدان المعين والنصير.

يقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا

(١) تهذيب سيرة ابن هشام: ٢٧١، ٢٧٢.

(٢) المصدر السابق.

قَلِيلًا (٧٤) إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ [الإسراء: ٧٣ - ٧٥].

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: يعدد السياق محاولات المشركين مع الرسول ﷺ .. هذه المحاولات التي عصم الله منها رسوله، هي محاولات أصحاب السلطان مع أصحاب الدعوات دائماً. محاولة إغرائهم لينحرفوا - ولو قليلاً - عن استقامة الدعوة وصلابتها، ويرضوا بالحلول الوسط التي يغرونهم بها في مقابل مغانم كثيرة، ومن حملة الدعوات من يفتن بهذا عن دعوته لأنه يرى الأمر هيناً، فأصحاب السلطان لا يطلبون إليه أن يترك دعوته بالكلية، إنما هم يطلبون تعديلات طفيفة ليلتقي الطرفان في منتصف الطريق، وقد يدخل الشيطان على حامل الدعوة من هذه الثغرة فيتصور أن خير الدعوة في كسب أصحاب السلطان إليها ولو بالتنازل عن جانب منها.

إن الانحراف الطفيف في أول الطريق ينتهي إلى الانحراف الكامل في نهاية الطريق وصاحب الدعوة الذي يقبل التسليم في جزء منها ولو يسير، وفي إغفال طرف منها ولو ضئيل لا يملك أن يقف عند ما سلم به أول مرة لأن استعداده للتسليم يتزايد كلما رجع خطوة إلى الوراء.

والمسألة إيمان بالدعوة كلها فالذي يتنازل عن جزء منها مهما صغر والذي يسكت عن طرف منها مهما ضؤل، لا يمكن أن يكون مؤمناً بدعوته حق الإيمان، فكل جانب من جوانب الدعوة في نظر المؤمن هو حق كالآخر، وليس فيه فاضل ومفضول وليس فيها ضروري ونافلة، وليس فيها ما يمكن الاستغناء عنه، وهي كل متكامل يفقد خصائصه كلها حين يفقد أحد أجزائه، كالمركب يفقد خواصه كلها إذا فقد أحد عناصره[1].

---

(١) في ظلال القرآن: (٤/ ٢٢٤٥).

من صور الثبات

١ - الصبر على طول الطريق:

إن الثبات على السير في هذا الطريق، والصبر على ما يجده الدعاة من مشاق هو المطلوب لهذه الدعوة، إنه طريق طويل شاق حافل بالعقبات والأشواك مفروش بالدماء والأشلاء وبالإيذاء والابتلاء.

والمتدبر لآيات القرآن يجد أن كل الآيات التي ذكر فيها النصر نزلت بالمدينة، وهذه لفتة جديرة بأن يتدبرها الدعاة إلى الله في كل أرض وفي كل جيل، فهي كفيلة بأن تريهم معالم الطريق واضحة بلا غبش وأن تثبت خطى الذين يريدون أن يقطعوا الطريق إلى نهايته كيفما كانت هذه النهاية، ثم يكون قدر الله بدعوته وبهم ما يكون **فلا يتلفتون أثناء الطريق الدامي المفروش بالجماجم والأشلاء، وبالعرق والدماء إلى نصر أو غلبة أو فيصل بين الحق والباطل في هذه الأرض**.. ولكن إذا كان الله يريد أن يصنع بهم شيئاً من هذا لدعوته ولدينه فسيتم ما يريده الله.. لا جزاء على الآلام والتضحيات.. لا، فالأرض ليست بجزاء وإنما تحقيقاً لقدر الله في أمر دعوته ومنهجه على أيدي أناس من عباده يختارهم ليمضي بهم من الأمر ما يشاء وحسبهم هذا الاختيار الكريم الذي تهون إلى جانبه وتصغر هذه الحياة وكل ما يقع في رحلة هذه الأرض من سراء أو ضراء[١].

إن القرآن الكريم ينشئ قلوبا يعدها لحمل الأمانة، وهذه القلوب يجب أن تكون من الصلابة والقوة والتجرد، بحيث لا تتطلع - وهي تبذل كل شيء وتحتمل كل شيء - إلى شيء في هذه الأرض ولا تنظر إلا إلى الآخرة ولا ترجو إلا رضوان الله، وتضحيته حتى الموت بلا جزاء في هذه الأرض، ولو كان هذه الجزاء هو انتصار الدعوة وغلبة الإسلام وظهور المسلمين، بل ولو كان هذا الجزاء هو هلاك الظالمين

---

(١) معالم في الطريق.

يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كما فعل بالمكذبين الأولين[1].

هذا هو الطريق الذي صنعه الله للجماعة المسلمة الأولى وللجماعة المسلمة في كل جيل إيمان وجهاد... ومحنة وابتلاء... وصبر وثبات... وتوجه إلى الله وحده ثم يجئ النصر.. ثم يجئ النعيم[2].

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

يقول الإمام ابن تيمية: إنه بالصبر واليقين تنال الإمامة في الدين.

وأخيراً يقول أبو الأعلى المودودي: يجب أن تروضوا أنفسكم على الأعمال الثابتة البعيدة الأثر والنتائج بطريق منظم تدريجي، فكل عمل مهما كان حقيراً في نظركم إذا كان مهماً في حد ذاته، ووكل إليكم أمره فعليكم أن تنفقوا فيه حياتكم كلها بدون أن تنتظروا له نتيجة عاجلة مرئية وبدون أن ترجوا من الناس الثناء على جهودكم فيه[3].

٢- الصبر على الأذى:

إن من علامات الإيمان الصبر على المصائب والتجلد أمام الأحداث.

قال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾ الآية [البقرة: ١٥٥].

فلا بد من الامتحان ومن الصروف، وإن من أعظم مواد الامتحان التي تظهر حقائق الرجال وتبين مواقف الأبطال هي الصبر على الأذى والابتلاء في سبيل الله.

وكثير من الذين لا يفهمون حقائق الإسلام يفضلون أن يصلوا في اليوم مائة ركعة ويذكروا الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. .ولكن ليس عندهم أي استعداد لأن

---

(١) معالم في الطريق.

(٢) ثمرات التربية الإسلامية: (٢).

(٣) تذكرة دعاة الإسلام.



يتجلدوا للمصائب وأن يصبروا على الأذى في سبيل الله ولو لحظة، وإذا أوذوا ضجروا، وانهزموا وقعدوا في بيوتهم مع القاعدين.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٠].

ونحن إن اطلعنا على كتاب الله ونقبنا عن أحاديث رسول الله ﷺ نجدها ناطقة بأحسن بيان بأن رضا الله ودخول الجنة لا يكون بعمل الطاعات والعبادات فحسب ولا يكون باتباع الحلال واجتناب الحرام وكفى، وإنما يدخل فيه كذلك الجهاد في سبيل الله والصبر على المحن والشدائد ومقاومة الظالمين(١).

فمن الآيات الكريمة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]. ومن الأحاديث قوله عليه الصلاة والسلام: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات»(٢) وقال ﷺ «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في البلاء»(٣).

ولقد تعرض كل فرد في المجتمع الإسلامي الجديد الذي أقامه الرسول ﷺ للأذى والفتنة بكل صنوفها، إلى حد إهدار الدم في كثير من الأحيان، ويومئذ لم يكن يقدم على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله والانضمام إلى المجتمع الإسلامي الوليد والدينونة لقيادته الجديدة، إلا كل من نذر نفسه وتهيأ لاحتمال الأذى والفتنة والجوع والغربة والعذاب والموت في أبشع الصور في بعض الأحيان.

وبذلك تكونت للإسلام تلك القاعدة الصلبة - من أصلب العناصر عوداً في

---

(١) مجلة الشهاب السنة الخامسة - العدد الأول د. عبد الله ناصح علوان.

(٢) متفق عليه واللفظ لمسلم.

(٣) البخاري.

المجتمع العربي - أما العناصر التي لم تحتمل هذه الضغوط فقد فتنت عن دينها ولم تثبت وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى(١).

إن رؤية هذه الحقيقة وهي المحنة الطويلة التي تعرضت لها الدعوة في مكة، تبين أن الله سبحانه وتعالى يعلم أن هذا هو المنهج القويم لتربية الجماعة الأولى وتكوين القاعدة الصلبة لهذه العقيدة، وأنه بدون هذه المحنة الطويلة لا تصلب الأعواد ولا تثبت للضغوط وأن هذه الدرجة من الصلابة والتجرد والإصرار والمضي في سبيل الله على الأذى والعذاب والقتل والتنكيل والتشريد وقلة العدد وانعدام النصر الأرضي، إن هذه الدرجة وحدها هي التي تصلح للقاعدة الأصيلة الثابتة عند نقطة الانطلاق الأولى(٢).

إن أصحاب هذه العقيدة يجب أن يدافعوا عن عقيدتهم، وأن يلقوا في سبيلها العنت والألم والشدة والضر وأن يتراوحوا بين النصر والهزيمة حتى إذا ثبتوا على عقيدتهم ولم تزعزعهم شدة ولم ترهبهم قوة، ولم يهنوا تحت مطارق الفتنة والمحنة: استحقوا نصر الله، لأنهم يومئذ أمناء على دين الله مأمونون على ما ائتمنوا عليه، صالحون لصيانته والذود عنه استحقوا الجنة لأن أرواحهم تحررت من الخوف ومن الذل ومن الحرص على الحياة(٣).

وصفوة القول: أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يتكفل بدعوته فحيثما أراد لها حركة صحيحة عرّض طلائعها للمحنة الطويلة وأبطأ عليهم النصر وأبطأ الناس عنهم حتى يُعلم منهم أن قد صبروا وثبتوا وتهيئوا وصلحوا لأن يكونوا هم القاعدة الصلبة الأصيلة الخالصة الواعية الأمينة، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون(٤).

---

(١) في ظلال القرآن.

(٢) في ظلال القرآن.

(٣) في ظلال القرآن.

(٤) في ظلال القرآن.

٣- ومن صور الثبات كذلك:

الصبر على شهوات النفس ورغائبها وأطماعها ومطامحها وضعفها ونقصها وعجلتها وملالها من قريب، والصبر على شهوات الناس وضعفهم ونقصهم وسوء تصورهم وانحراف طباعهم وأثرتهم وغرورهم والتوائهم واستعجالهم للثمار والصبر على الباطل ووقاحة الطغيان وانتفاشه وغلبة الشهوة، والصبر على قلة الناصر وضعف المعين، وطول الطريق ووساوس الشيطان في ساعات الكرب والضيق، والصبر على مرارة الجهاد، وما تثيره النفس من انفعالات متنوعة من الألم والغيظ والحنق والضيق وضعف الثقة أحياناً من الخير، وقلة الرجاء أحياناً في الفطرة البشرية والملل والسأم واليأس أحياناً والقنوط.

والصبر بعد ذلك كله على ضبط النفس في ساعة القدرة والانتصار والغلبة واستقبال الرخاء في تواضع وشكر وبدون خيلاء وبدون اندفاع إلى انتقام وتجاوز القصاص الحق إلى الاعتداء، والبقاء في السراء والضراء على صلة بالله، واستسلام لقدره، ورد الأمر كله إليه في طمأنينة وخشوع[١].

نماذج على الطريق:

إن الناظر المتفحص لتاريخ أمتنا يجد أن هذا الدين لم يصل إلينا نقياً صافياً إلا بفضل الله أولاً ثم بفضل أولئك الذين ثبتوا على طريقه على مر العصور، لم يرهبهم سوط الجلاد ولا جمر الأصفاد، ولم يغرهم بريق المال أو الجاه فرسولنا ﷺ - كما تعلم - تعرض لكل أساليب التهديد من أجل ترك دعوته فلما فشلوا في ذلك ضغطوا على عمه أبي طالب وهددوه فلما بلغ ذلك الرسول ﷺ قال له: **«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».**

---

(١) ثمرات التربية الإسلامية.

وهذا الإمام أحمد بن حنبل - إمام أهل السنة - عندما امتحن بالفتنة المشهورة في عهد المأمون والمعتصم والواثق، وهي القول بخلق القرآن الذي تزعمه المعتزلة، فثبت على موقفه الحق وأصر على رأيه الصريح، ولم يغير من جوابه الذي يردده كلما أفاق من إغماءة التعذيب والتنكيل، فيقول: هو كلام الله غير مخلوق، ولبث في السجن عامين ونصف عام، ولما يئسوا من إخضاعه لما يريدون، وزالت دولة الرأي بالباطل، أخرجوه من السجن واهي القوة مريضًا مثخنًا بالندب والآلام ولقد كان باستطاعة الإمام أحمد أن يتجنب هذا كله لو وافقهم على ما قالوا بلسانه فقط كما فعل الكثير من العلماء في عصره لينجو بنفسه، ولكن بنظرته الثاقبة وفقه الواسع وتأييد الله له رأى الناس من حوله ينتظرون إجابته، ففضل المصلحة العامة - وهي الثبات على الحق والجهر به كيلا يفتن الناس - على مصالحه الخاصة وإن أدى ذلك إلى موته قال له أحد تلامذته: يا أستاذ، قال الله تعالى: ﴿ولا تقتلوا أنفسكم﴾ [النساء: ٢٩]. فقال أحمد: يا مروذي أخرج انظر أي شيء ترى، فقال: فخرجت إلى رحبة دار الخلافة فرأيت خلقا من الناس لا يحصى عددهم إلا الله، والصحف في أيديهم والأقلام والمحابر في أذرعتهم، فقال لهم المروذي: مكانكم، فدخل إلى أحمد بن حنبل فقال: رأيت قوما بأيديهم الصحف والأقلام ينتظرون ما تقول فيكتبون. فقال: يا مروذي، أأضل هؤلاء كلهم؟ أقتل نفسي ولا أضل هؤلاء[1].

علاجنا لمن ضعف:

على كل منا ألا يكون عونًا للشيطان على من بدأ يضعف من إخوانه، بل يحاول أن يغلق أمام أخيه أبواب النكوص، وأن يعمل جاهدًا على ألا يدلف من باب منها، فإن أصر إلا أن يدلف، فلا يغلق خلفه الأبواب بل يترك بعضها مفتوحًا أمامه فقد يعود إلى رشده في يوم من الأيام فيجد بابًا مفتوحًا يدخل من خلاله.

---

(١) محنة الإمام أحمد: (١٥٣).

ولقد كان هذا هو دأب الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ مع من همّ بالتبديل من إخوانهم.

أخرج ابن إسحاق عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما عن عمر بن الخطاب قال: اتعدنا وتواعدنا، لما أردت الهجرة إلى المدينة أنا وعياش بن أبي ربيعة وهشام بن العاص رضي الله عنهما التناضب[1] من أضاة[2] بني غفار فوق سرف[3]. وقلنا أينا لم يصبح عندها فقد حبس فليمض صاحباه.

قال: فأصبحت أنا وعياش عند التناضب وحبس هشام وفتن فافتتن، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء وخرج أبو جهل بن هشام والحارث بن هشام إلى عياش ـ وكان ابن عمهما وأخاهما لأمهما ـ حتى قدما المدينة، ورسول الله ﷺ بمكة، فكلماه وقالا له: إن أمك قد نذرت ألا يمس رأسها مشط حتى تراك، ولا تستظل من شمس حتى تراك، فرقّ لها، فقلت له: إنه والله إن يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القمل لامتشطت، ولو قد اشتد عليها حر مكة لاستظلت، قال: فقال: أبر قسم أمي ولي هناك مال فآخذه. قال: قلت: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما، قال: فأبى علي إلا أن يخرج معهما، فلما أبى إلا ذلك قلت: أما إذا فعلت ما فعلت، فخذ ناقتي هذه فإنها ناقة نجيبة ذلول فالزم ظهرها، فإن رابك من أمر القوم ريب فانج عليها فخرج عليها معهما حتى إذا كان ببعض الطريق، قال له أبو جهل: يا أخي والله لقد استغلظت بعيري هذا، أفلا تعقبني على ناقتك هذه، قال: بلى فأناخ وأناخا ليتحول عليها.

فلما استوا بالأرض عدوا عليه فأوثقاه رباطًا ثم دخلا به مكة وفتناه فافتتن،

---

(1) واد يدفع في عقيق المدينة.

(2) الغدير.

(3) موضع على ستة أميال من مكة.

قال: عمر رضي الله عنه فكنا نقول: لا يقبل الله ممن افتتن توبة، وكانوا يقولون ذلك في أنفسهم، حتى قدم رسول الله ﷺ المدينة وأنزل الله: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٥٣) وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ (٥٤) وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣ - ٥٥].

قال عمر: وكتبتها وبعثت بها إلي هشام بن العاص، قال هشام: فلما أتتني جعلت اقرؤها بذي طوى[١] اصعد بها وأصوب ولا أفهمها حتى قلت: اللهم فهمنيها، فالقىٰ الله في قلبي أنها إنما أنزلت فينا وفيما كنا نقول في أنفسنا، ويقال فينا. قال: فرجعت إلى بعيري فجلست عليه فلحقت برسول الله ﷺ بالمدينة.

فعمر بن الخطاب رضي الله عنه في الموقف يبين لنا كيف نتعامل مع من اراد النكوص فمع عياش حاول أن يسد أمامه كل أبواب الفتنة بل عرض عليه نصف ماله فلما أبى عياش إلا الرجوع لم يتركه بل حاول أن يعينه على الا يفتن فتنة كاملة بان أعطاه ناقته النجباء.

وموقفه مع هشام بن العاص يبين لنا ذلك فعندنا علم بان الله عز وجل يقبل توبة المفتون سارع بإرسال الآيات الدالة على ذلك إلى هشام ففتح الله بها عليه وهاجر إلى المدنية.

هكذا ينبغي ان يكون موقف الاخ المسلم مع من أراد التبديل: **يحاول أن يسد أمامه المنافذ فإن أبىٰ فليعنه كي لا ينهار إلى السفح، وليتحين الفرصة كي يعيده مرة أخرى إلى الطريق مثلما فعل عمر مع هشام بن العاص[٢].**

---

(١) موضع عند باب مكة.

(٢) حياة الصحابة: (١ / ٣٢٨، ٣٢٩).

الطريق إلى الثبات :

إن ثبات الأخ المسلم حتى النهاية أمر لا يعلمه إلا الله فمن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئًا ولكن مما لا شك فيه أن هناك معينات تعين الأخ على الثبات في الطريق منها :

١ - دوام اللجوء إلى الله عز وجل وسؤاله الثبات والدخول عليه من باب الفقر والذل والانكسار والإكثار من الدعاء، وبالأخص : «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك ، يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك وطاعة رسولك»

فكلما اقترب المسلم من ربه كان من أكثر الناس تعرضًا لرحمات الله، ومن رحماته سبحانه وتعالى تثبيت الذين آمنوا .

يقول عز وجل : ﴿ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ﴾ .

[طه : ١٣٠]

ويقول : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ ﴾ [الطور : ٤٨ ، ٤٩] .

فالذي يعين على الصبر والثبات كثرة التسبيح بحمد الله والانشغال بحبه والتلذذ بمناجاته، لذلك كان التوجيه الرباني للرسول ﷺ وكل صاحب دعوة ﴿ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (٤) إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾ [المزمل : ٢ - ٥] .

٢ - **عدم الشعور بالأفضلية مهما كانت المكانة ومها تعددت المواهب :** فمن أسباب نكوص الكثير احساسهم بانهم ذوو امتياز أسمى من غيرهم فإذا ما رأوا من هم دونهم في المنزلة يتقدمون الصفوف ويحتلون مواقع التوجيه فإن نفوسهم تثور ثائرتها ويبدأ الصراع النفسي العنيف بين تقبل هذا الوضع أو التمرد عليه .. وكثيرا ما ينتهي هذا الصراع بالقعود أو التبديل، كل ذلك بسبب الشعور بالفوقية، لذلك

على كل منا أن يغرس في نفسه أنه أقل الناس شأنا وأدناهم مرتبة بما يعلمه من شرور نفسه فهو ينظر إلى من حوله بعين الرجاء وإلى نفسه بعين الخوف.

يقول ابن القيم: **إن طغيان المعاصي أسلم عاقبة من طغيان الطاعات**، فالعمل الصالح قد تستولي عليه النفس وتُصيره جنداً لها تصول به وتطغى، فترى العبد ازهد ما يكون واعبد ما يكون واشد اجتهادا، وهو ابعد ما يكون عن الله، واصحاب الكبائر اقرب قلوبا إلى الله منه، وادنىٰ منه إلىٰ الإخلاص والخلاص[1].

لذلك عليك أن تربأ بنفسك عن تعيير المقصرين، فلعل تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثما من ذنبه واشد من معصيته لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، ولعل كسرته بذنبه وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء بنفسه والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب ووقوفه بين يدى الله ناكس الرأس خاضع الطرف، منكسر القلب، انفع له، وخير من صولة طاعتك والاعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بهما.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله[2].

ويقول ابن عطاء الله السكندري: **ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول، ربما قضى عليك بالذنب فكان سبباً في الوصول. معصية أورثت ذلاً وافتقاراً خير من طاعة أورثت عزاً واستكباراً.**

٣- عدم الاعتداد بالرأي:

يقول تعالى: ﴿**وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ**﴾ [الأنفال: ٤٦].

يقول الأستاذ سيد قطب: فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيامة والتوجيه، وإلا حين يكون الهوى المطاع هو الذى يوجه الآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لله ورسوله انتفى السبب الأول الرئيسي للنزاع بينهم - مهما اختلف وجهات النظر في المسألة المعروضه - فليس الذي يثير النزاع هو اختلاف وجهات

---

(١) تهذيب مدارج السالكين: (٥٧٣).

(٢) المصدر السابق: (١١٨، ١٢٠).

الحق، إنما هو الهوى الذي يجعل كل صاحب وجهة يصر عليها مهما تبين له وجه الحق فيها، وإنما هو وضع «الذات» في كفة، والحق في كفة، وترجيح الذات على الحق ابتداء[1].

فالمسلم قد يختلف مع من حوله ولكن من أجل الوصول إلى الحق لا من أجل الانتصار لنفسه فإذا ما ظهر الحق على لسان غيره أذعن إليه فلا يحاول فرض رأيه أو الانتصار له دون النظر لموقع هذا الرأي من الحق.

يقول الإمام الشافعي ـ رحمه الله: **رأيي صواب يحتمل الخطأ ورأي غيري خطأ يحتمل الصواب**، ويقول: **ما ناظرت أحداً فأحببت أن يخطئ**[2].

فمن طبيعة الطريق أنه طريق طويل شاق بعيد المراحل كثير العقبات، فلا بد أن يوطن كل منا نفسه على الصبر الجميل والنفس الطويل ويوقن أنه قد يموت دون رؤية النصر حسبه أنه سار في الطريق ومات وهو فيه.

فإن أيقن الجندي ذلك فلن يتعجل قطف الثمار قبل أوانها ولن يجره ضغط الواقع إلى الاستعجال وطلب المواجهة.

إن الصبر على التربية والتعهد، والصبر على رؤية تبجح الباطل دون الرد عليه أشد من الصبر على مواجهة العدو، ولقد كان خط الدعوة في العهد المكي الأمر بترك المكذبين عليه، والصبر على المقاومة والتكذيب، والهجر الجميل، والقيام بتبليغ الرسالة، والأمر بالخلق الكريم: **﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾**
[المزمل: ١٠]

﴿قُل لِّلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الجاثية: ١٤].

﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ [الروم: ٦٠].

فالصبر على البلاء، وتحمل المحن والعفو عن الإساءة ـ مع القدرة على الرد ـ أمر

---

(١) في ظلال القرآن: (٣/ ١٥٢٨).

(٢) صفة الصفوة: (٢/ ٢٣٩، ٢٤٠).

المشركين والصبر إلى حين، وكانوا يتحرقون ويودون لو أمروا بالقتال ليشفوا من

صدورهم.

وفي الآيات كما يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله[1]: يعجب الله سبحانه

من أمر هؤلاء الذين كانوا يتدافعون حماسة إلى القتال ويستعجلونه وهم في مكة

يتلقون الأذى والاضطهاد والفتنة من المشركين، حين لم يكن مأذونًا لهم بالقتال

لحكمة التي يريدها الله، فلما أن جاء الوقت المناسب الذي قدره الله، وتهيأت

الظروف وكتب عليهم القتال، إذا فريق منهم شديد الجزع شديد الفزع.

إن أشد الناس حماسة واندفاعاً وتهوراً قد يكونون هم أشد الناس جزعاً

وانهياراً وهزيمة عندما يجدُّ الجد وتقع الواقعة، بل إن هذه قد تكون القاعدة!

ذلك أن الاندفاع والتهور والحماسة الفائقة غالبًا ما تكون منبعثة من عدم التقدير

لحقيقة التكاليف لا عن شجاعة واحتمال وإصرار كما أنها قد تكون منبعثه عن قلة

الاحتمال، قلة احتمال الضيق والأذى والهزيمة، فيدفعهم قلة الاحتمال إلى طلب

الحركة والدفع والانتصار بأي شكل، دون تقدير لتكاليف الحركة والدفع

والانتصار، حتى إذا ووجهوا بهذه التكاليف كانت أثقل مما قدروا وأشق مما تصوروا

فكانوا أول الصف جزعًا ونكوصاً وانهياراً، على حين يثبت أولئك الذين كانوا

يمسكون أنفسهم ويحتملون الضيق والأذى بعض الوقت، ويعدون للأمر عدته، إنه

طريق طويل وشاق ولكن ليس هناك طريق غيره.

ومن طبيعة هذا الطريق أيضاً أنه طريق مليء بالعقبات والابتلاءات.

يقول تعالى: ﴿الٓمٓ ① أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١، ٢].

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا

---

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٧١٢.

إنَّ نصرَ اللهِ قريبٌ ﴾ [البقرة: ٢١٤].

فقد جرت سنة الله سبحانه وتعالى أن يبتلي المؤمنين ويختبرهم ليمحص إيمانهم ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك، فقد سئل الشافعي رحمه الله تعالى هل لنا أن نمكن أو نبتلى؟ فقال: لا تمكن حتى تبتلى، فإن الله لم يعط نوحاً وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم حتى صبروا(١).

وأنواع الابتلاءات التي قد تواجه الجندي كثيرة فقد يبتلى في دينه بأن يعذب أو يشرد أو يذبح أو يفصل من عمله أو يضطهد وقد يبتلى في أهله وقد يبتلى بالخير بأن تفتح له الدنيا ﴿ ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فتنةً ﴾ [الأنبياء: ٣٥]. وقد يبتلى من أقرب الناس إليه ﴿ وجعلنا بعضكُمْ لبعضٍ فتنةً أتصبرونَ ﴾ [الفرقان: ٢٠] كل هذه الابتلاءات وغيرها ينبغي على الأخ المسلم أن يوطن نفسه عليها حتى لا يفاجأ بها.

ولقد تربى المسلمون الأوائل على ذلك وأيقنوا أن طريق الجنة محفوف بالمكاره وعندما كانت تمر بهم الشدائد يزداد يقينهم بأنهم يسيرون في الطريق الصحيح.

ففي غزوة الأحزاب اشتد البرد والخوف والجوع وتجمعت الأحزاب من فوقهم ومن أسفل منهم عند ذلك أيقن المؤمنون بوعد الله ورسوله بالابتلاء ﴿ ولمّا رأى المؤمنونَ الأحزابَ قالوا هذا ما وعدنا اللهُ ورسولُهُ وصدقَ اللهُ ورسولُهُ وما زادهُمْ إلاَّ إيماناً وتسليماً ﴾ [الأحزاب: ٢٢].

أي صبراً على البلاء، وتسليماً للقضاء، وتصديقاً للحق(٢). وفي النهاية على الأخ المسلم أن يتذكر دائماً حديث رسول الله ﷺ عندما سئل عن أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في

---

(١) الفوائد لابن القيم: ١٨٣.

(٢) تهذيب سيرة ابن هشام: (١٩٢).

دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلى على قدر دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض وما عليه خطيئة»(١).

٥- البعد عن مواضع الفتن:

طريق الدعوة، ليس كما يظن البعض مفروشاً بالورود والرياحين بل مليء بالأشواك والعقبات، ومن أصعب هذه العقبات على النفس تلك التي قد يجدها الأخ المسلم من بعض إخوانه كما قال تعالى: ﴿ **وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون** ﴾ [الفرقان: ٢٠].

والذي يعين الأخ على اجتياز تلك العقبة أمور عدة منها: علمه بأننا جميعاً بشر، الأصل فينا النقص والضعف، فإذا أضاف إلى ذلك طبيعة البيئة التي نشأ فيها الكثير منا فيسهل عليه استيعاب ما قد يحدث أمامه من أفعال و تصرفات بعيدة كل البعد عما أمر به الإسلام وحث عليه.

ومما يعين على ذلك أيضا: الابتعاد التام عن مواضع الفتن والمنازعات والمشاكل فلا ينبغي للأخ أن يكون طرفاً فيها وليبعد نفسه عنها غاية الإمكان مهما حاول غيره جره إليها، وليتذكر قول الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه الإمام البخاري عن أبي هريرة: «**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، من تشرف إليها تستشرفه، فمن وجد منها ملجأ أو معاذا فليَعُذ به**».

يقول ابن حجر في شرح الحديث: والمراد بالقائم الذي لا يستشرفها، وبالماشي من يمشي في أسبابه لأمر سواها، فربما يقع بسبب مشيه في أمر يكرهه، والمراد بمن تشرف لها أي تطلع لها بأن يتصدى ويتعرض لها ولا يعرض عنها، وتستشرفه أي تهلكه بأن يشرف منها على الهلاك، يريد من انتصب له ومن

---

(١) رواه ابن ماجة والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

[illegible]

[illegible] والحث على اجتناب الدخول فيها وإن [illegible]

[illegible] بها (١)

٦ - الإكثار من عمل الصالحات:

يقول تعالى: ﴿إن يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم﴾ [الأنفال: ٧٠].

فالإكثار من الصالحات والعمل على زيادة رصيد الخير في قلوبنا لعله سبحانه وتعالى يعد لنا ويثبتنا. يقول تعالى: ﴿ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء (٢٤) تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون (٢٥) ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار (٢٦) يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله ما يشاء﴾.

[إبراهيم: ٢٤ - ٢٧]

إن الكلمة الطيبة - كلمة الحق - كالشجرة الطيبة، ثابتة سامقة مثمرة ثابتة لا تزعزعها الأعاصير، ولا تعصف بها رياح الباطل، ولا تقوى عليها معاول الطغيان - وإن خيل للبعض أنها معرضة للخطر الماحق في بعض الأحيان - سامقة متعالية، تطل على الشر والظلم والطغيان من عل - وإن خيل إلى البعض أحيانا أن الشر يزحمها في الفضاء - مثمرة لا ينقطع ثمرها لأن بذورها تنبت في النفوس المتكاثرة آنا بعد آن.

فالخير الأصيل لا يموت ولا يذوي، مهما زحمه الشر وأخذ عليه الطريق، والشر كذلك لا يعيش إلا ريثما يستهلك بعض الخير المتلبس فيه وفي ظل الشجرة

---

(١) فتح الباري (١٢/ ٣٢ - ٣٥).

...ومن الكلمة الطيبة: ﴿يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾.

يثبت الله الذين آمنوا في الحياة الدنيا وفي الآخرة بكلمة الإيمان المستقرة في الصدور، الثابتة في الفطر، المثمرة بالعمل الصالح المتجدد الباقي في الحياة، ويثبتهم بكلمات القرآن كلمات الرسول، وبوعده للحق بالنصر في الدنيا، والفوز في الآخرة... وكلها كلمات ثابتة صادقة حقة، لا تتخلف ولا تتفرق بها السبل، ولا يصاحبها قلق ولا حيرة ولا اضطراب(١).

* * *

(١) في ظلال القرآن: ٤/ ٢٠٩٨، ٢٠٩٩.